التزكية

على منهاج النبوة

المرحلة الأولى

مرحلة الطالبين

الباب الخامس

تزكية القلب

الدكتور معاذ سعيد حوى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾
[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها
أنت وليها ومولاها»

أخرجه مسلم

المرحلة الأولى
مرحلة الطالبين

الباب الخامس تزكية القلب

الفصل الأول
حقيقة القلب وصفاته وأحواله وأعماله وخواطره وطريق تزكيته

وفيه أحد عشر مبحثاً:

- **المبحث الأول:** تعريف القلب والفؤاد.
- **المبحث الثاني:** نصوص تُنَبِّهُ إلى أهمية القلب وصفاته وأحواله وأعماله.
- **المبحث الثالث:** أنواع القلوب ودرجاتها وخلاصة تزكيتها.
- **المبحث الرابع:** العلاقة بين العقل والقلب والجسد.
- **المبحث الخامس:** تزكية القلب بين التطهير والترقية.
- **المبحث السادس:** خواطر القلب ومنهج التعامل معها.
- **المبحث السابع:** التذكُّر ووسائله.
- **المبحث الثامن:** الرغبات القلبية الصحيحة.
- **المبحث التاسع:** إرادة صحيحة.
- **المبحث العاشر:** مجاهدةُ النفس في شهواتها ومخالفةُ الهوى.
- **المبحث الحادي عشر:** أهم تكاليف القلوب تحلياً وتخلياً.

المبحث الأول

تعريف القلب والفؤاد لغة واصطلاحا

تعريف القَلْب والفؤاد لغة[1]:

لما كان الفؤاد اسماً للقلب، يرادفه أو يختلف عنه قليلاً أو يتقاطعان، فإنا نبين تعريفه معه لغة.

القَلْبُ: الفُؤاد[2]، وهو لَحْمَة صنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر متصلة بالجسد بشرايين يسري فيها الدَّم الذي يضخه القلب إلى سائر الجسم[3].

وهذا القلب الحسي، ويطلق القلب لغة على القلب المعنوي الذي سنذكره في الاصطلاح.

وقد يعبر بالقَلْب عن العَقْل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ أَي عَقْلٌ، وقيل معناه: تَفَهُّمٌ وتَدَبُّرٌ.

وأصل القَلْبِ في اللغة: تَحْويلُ الشيءِ عن وجهه، قَلَبه يَقْلِبُه قَلْباً، قال تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨]، والجمع: قُلوب وأَقْلُب، وقلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثوب وقلب الإنسان أي: صرفه عن طريقته، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، والانقلاب: الانصراف، قال: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقيل: سمي القلب قلباً لكثرة تقلبه.

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ١/ ٦٨٥-٦٨٧، ومفردات القرآن، للراغب: ١/ ١٢٠٤.

(٢) وسيأتي بيان الفرق بين القلب والفؤاد.

(٣) وبهذا المعنى عرفه بعضهم بأنه: مُضْغةٌ من الفُؤَاد مُعَلَّقَةٌ بالنِّياط، أي بالشرايين.

وتقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال نحو: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الأحزاب: ٦٦] وتقليب الأمور: تدبيرها والنظر فيها قال: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾(١) [التوبة: ٤٨]، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي قال: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الفؤاد: والجمع أفئدة:

يرى بعض اللغويين أن القلب والفؤاد بمعنى واحد، ويرى بعضهم أن أحدهما أخص من الآخر، «قال الأَزهري: ورأَيت بعضَ العرب يُسَمِّي لحمةَ القَلْبِ كُلها، شَحْمَها وحِجابَها: قَلْباً وفُؤَاداً، قال: ولم أَرهم يَفْرِقُونَ بينهما؛ قال: ولا أُنْكِر أَن يكون القَلْبُ هي العَلَقة السوداءُ في جوفه»(٢)، وقال ابن منظور: «ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتاكم أَهل اليَمن، هم أَرَقُّ قلوباً، وأَلْيَنُ أَفئدةً»، فوَصَفَ القلوبَ بالرِّقة، والأَفْئِدَة باللِّين، وكأَنَّ القَلْبَ أَخَصُّ من الفؤَاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أَصَبْتُ حَبَّةَ قلبه، وسُوَيْداءَ قلبه»(٣)، وربما يكون القلب بمعنى الفؤاد تماماً، لكن النبي ﷺ وزع الأوصاف إليهما، على سبيل الترادف والتنويع في الكلام، لا على سبيل الافتراق، وقال بعض العلماء: «الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي: التوقد يقال: فأدت اللحم: شويته ولحم فئيد: مشوي»(٤).

---

(١) ويمكن أن يكون المعنى أنهم نظروا في الأمور نظراً يريدون معه تحويلها عن حقيقتها، فيكون القلب هنا بمعنى التحويل المعنوي لا الحسي.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ١/ ٦٨٧، قال الخطابي في غريب الحديث ١/١٩٦: «وزعم بعضهم أن الفؤاد غشاء القلب وأن القلب حبته وسويداؤه».

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ج ١، ص ٦٨٧.

(٤) مفردات القرآن للراغب: ج١، ص١١٤٢، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٥٦٥.

والقلب اصطلاحاً: يأتي بمعانيه اللغوية، فيطلق على تلك المضغة المعروفة، ويطلق على ما يحصل من إدراك وتعقل في تلك المضغة، وبهذا الاعتبار عُرِّف القلب بأنه:

«لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان(١)، وهي المدرِك والعالِم من الإنسان والمخاطَب والمطالَب والمعاتَب»(٢).

وقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة... القلب» يدل على أن القلب المعنوي هو في القلب المادي الجسمي المسمى بالمضغة.

التعريف المختار: والذي أختاره جمعاً بين التعريفات السابقة:

القلب: يطلق القلب على اللَّحْمَة الصنوبرية الشكلِ في الجانب الأيسر من الصدر، ويطلق على اللطيفة المعنوية الموجودة في هذه اللحمة، وهو محل الإدراك والتعقل والتفهم، وهو محل الرغبات والأهواء فيتقلب بين رغبة وأخرى، بين خير وشر، وهو محل الإرادة، فيختار إحدى الرغبات، وهو المخاطَب من الإنسان والمطالَب والمعاتَب.

وما ذكرناه في التعريف من قولنا: «وهو محل الإدراك والتعقل والتفهم»، وقولنا: «وهو المخاطَب من الإنسان والمطالَب والمعاتَب»، على اعتبار أن العقل أو العقل الإيماني في القلب، وقد خصصنا الكلام عن العقل في الرسالة الثانية

---

(١) مما قاله الجرجاني في تعريف القلب: «ويسميها الحكيم [يعني الفيلسوف]: النفس الناطقة، والروح باطنُه، والنفس الحيوانية مَرْكَبُه»، ومعنى ذلك في تعريف القلب أنه هو محل الإدراك الذي يصدر عنه النطق، ويستمد من الروح قواها، ومحل قيامها الجسم، فلولا الروح ما نطقت ولا أدركت، ولولا الجسم ما وَجَدَت الروح الآلة التي بها تدرك وتنطق.

(٢) التعريفات، للجرجاني: ص ٢٢٩ رقم ١١٤٩.

بغض النظر عن مكانه في القلب أم في الدماغ، وسيكون كلامنا في هذه الرسالة مختصاً بأمور القلب الأخرى؛ من خواطر وإحساسات ومشاعر ورغبات وإرادة.

استعمال مصطلحي القلب والنفس في كتب علم التزكية:

أقول: يطلق القلب على ما يحصل فيه التعقل والخواطر والميل والعاطفة والرغبة والهوى والحب والإرادة، كما سنبين ذلك من خلال النصوص القرآنية والنبوية، وغالباً ما يطلق في علم التزكية على هذا المعنى، لكننا نلاحظ أن كثيراً من علماء التزكية ينسبون هذه العواطف والرغبات والميول إلى القلب إذا كانت متجهة نحو الخير والحق، وينسبونها إلى النفس إذا كانت متجهة نحو الشر والباطل، والنفس هنا ما هي إلا القلب، ولكنه اصطلاح جرى التعامل به عند كثير من علماء التزكية، وليس ذلك بعيداً عن مصطلح الشرع فقد استعملت لفظة النفس للقلب فيه أحياناً، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

لكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أن هذا الاصطلاح مُلزِم ومُضطرِد، بل يمكن أن تُنسب معاني الخير والشر إلى النفس، كما يمكن أن تُنسب إلى القلب أيضاً، وتجد من النصوص ما يؤيد ذلك، وهو الذي جرينا عليه في هذا الكتاب.

تنبيه: من خلال استعراض النصوص الواردة في القلب؛ لا يَبْعُدُ عندي أن يكون القلب قد أطلق ـ في نصوص الشرع ـ على أمرين: يطلق ليدل على القلب المتعلق بالقلب الحسي، ويطلق ليدل على **الأمور المعنوية غير الحسية التي تكون في باطن الإنسان، ولا تظهر**، فيكون القلب شاملاً للخواطر والانفعالات النفسية والرغبات والإرادة والنية، وشاملاً للعقل وأعماله من تعقل وتفكر وتذكر وتدبر، وشاملاً للروح، يشمل كل ذلك حقيقة لا مجازاً، على هذا المعنى.

أما ما يُظهِر هذه الأمور من أقوال وأعمال فهو غير القلب، فالأقوال والأعمال تدخل في الحس والظاهر، بالإضافة إلى ما يُرى من الإنسان من جسمه الظاهر.

وهذا الفهم ليس بعيداً عن معاني اللغة، فقلب الشيء يطلق على داخله الذي يخفى وراء ظاهره، فيكون بمعنى الباطن[1]، لكن القلب الذي نتكلم عنه مختص بالأمور المعنوية، دون الأمور الحسية التي في باطن الإنسان من معدة وكبد وعظم وغير ذلك.

(١) كثيراً ما يقول الناس: قَلْبُ الشيء، ويقصدون داخله، ويكون للشيء ظاهر يخُفيه ويحَفظه، قال ابن منظور في لسان العرب ١/ ٦٨٨: «وقَلْبُ كلّ شيءٍ: لُبُّه، وخالِصُه، ومحَضُه،... وفي الحديث: إن لكلِّ شيءٍ قَلْباً، و قلبُ القرآن يس»، وقال ١/ ٦٨٦: «وقَلَب الخُبْزَ ونحوَه يَقْلِبه قَلْباً إذا نَضِج ظاهرُه فَحَوَّله ليَنْضَجَ باطنُه».

المبحث الثاني

نصوص تنبه إلى أهمية القلب وصفاته وأحواله وأعماله

وردت عشرات النصوص في الكتاب والسنة التي تتحدث عن القلب والفؤاد وصفاته وأحواله وأعماله وما ينبغي أن يكون عليه وما ينبغي أن يتطهر منه، وفيما يأتي نذكر عدداً من نصوص الكتاب والسنة التي ذكرت القلب، لنعرف قدر الأهمية الكبرى التي أولاها الله تعالى للقلب، وما رتب عليه من أعمال، وما أوجب علينا أن يتصف به القلب، وما حذرنا من أن يتصف به القلب، نذكر هذه النصوص لتكون دافعاً لنا إلى الاهتمام بتزكية القلب تطهيراً وإصلاحاً[1]:

القلب محل الإيمان: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤].

القلب محل الهداية: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

القلب محل العاطفة نحو الحق والميل والحب والزينة: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

---

(١) سيأتي ذكر مزيد من النصوص التي تبين حقيقة القلب ووظائفه وصفاته مع شرحها في كتاب المرحلة الثانية والثالثة من مراحل التزكية، وإنما نذكر هنا بعض النصوص على سبيل التنبيه بأهمية القلب وأعماله، وما يمكن أن يحمله من صفات، وخلال الموضوعات الآتية سيمر معنا عدد من النصوص تتكلم عن القلب، مع شرحها، انظر للمزيد والتوسع: كتاب والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله «الأساس في السنة وفقهها» قسم العقائد الإسلامية: ج١، ص٤٢- ص٦١؛ فقد جمع طائفة كبيرة من النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة التي ورد فيها ذكر االقلب.

القلب محل الضلال والزيغ والانحراف والميل نحو الباطل: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ [آل عمران: ٧] أي انحراف عن الهداية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥] أي زادهم انحرافاً، وقال تعالى ذاكراً دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

القلب هو محل التعقل والفهم: قال تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

القلب محل التذكر: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ [١]﴾ [ق: ٣٧].

القلب المحل الأهم لنظر الله تعالى: قال رسول الله ﷺ: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

القلب محل الخواطر: قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً كالحصير»[٣].

القلب محل الهوى والشهوات: قال ﷺ: «كل ابن آدم كتب عليه حظه من الزنا... والنفس تَمَنَّى وتشتهي»[٤]، وفي رواية: «والقلب يتمنى ويشتهي»[٥]،

---

(١) مع ملاحظة أنه قد يكون المقصود بالقلب في هذه الآية: العقل.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٤٤، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه..

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٢٣٨ ومسلم رقم ٢٦٥٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٧٥٢ وصححه على شرط مسلم.

وفي رواية: «والقلب زناه التمني»(١)، فالنفس في الرواية الأولى بمعنى القلب، فهو محل الشهوة والهوى والأمانيّ.

القلب محل العزيمة والإرادة: قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥] أي قصدت وأرادت.

القلب محل لوساوس الشيطان: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في **قلوبكما** سوءاً»(٢).

القلب فيه محل لحظ الشيطان: دليله ما روي في السيرة أن النبي ﷺ قد شق صدره في طفولته ثم نزع حظ الشيطان من قلبه ﷺ(٣).

القلب له أعماله التي كلف بها ويحاسب عليها: قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٤٤٢١ وبين معناه إذ عنون له بقوله: «ذكر إطلاق اسم الزنى على القلب إذا تمنى وقوع ما حرم عليه».

(٢) أخرجه البخاري ٣١٠٧، ومسلم رقم ٢١٧٥، عن صفية بنت حيي رضي الله عنها، وقال مسلم: «شراً» بدل «سوءاً».

(٣) ونص الحديث في صحيح مسلم رقم ١٦٢ «عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا **حظ الشيطان** منك، ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره [أي مرضعته]، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

ومن أعمال القلب: الإخلاص: قال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، **خالصاً من قلبه** أو نفسه»(١)، وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله **مخلصاً من قلبه** دخل الجنة»(٢).

ومن أعمال القلب: الإنابة إلى الله والرجوع والتوبة: قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

القلب محل العواطف والمشاعر والإحساسات:

كالحب والألفة: قال تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والألفة ميل في القلب إلى الآخر.

وكاللين والرقة: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكالحزن: قال ﷺ: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم»(٣).

وكالرعب والخوف: قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وكالنفور والكُره والاشمئزاز: قال تعالى: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٩٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه ابن حبان رقم ٢٠٠، ونحوه عند أحمد في المسند رقم ٢٢١١٣.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٢٤٢ ومسلم رقم ٩٢٤، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

القلب محل الأخلاق:

كالرأفة والرحمة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

وكالقسوة والجفاء والغلظة في القلب: قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال رسول الله ﷺ: «غلظ القلوب والجفاء: في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز»(١).

وكالكرم والبخل: قال ﷺ: «ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»(٢).

القلب ذو أحوال:

القلب يتقلب: قال النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(٣)، فالقلب يتقلب من حال إلى آخر بين لحظة وأخرى؛ من خاطر إلى خاطر، ومن شعور إلى شعور، ومن صفة إلى صفة، ومن رغبة إلى رغبة.

ـ من خلال ما سبق نجد أن القلب هو محل العقل(٤)، فهو الذي يميز بين الحق والباطل، وهو محل الإيمان والكفر أو النفاق، وهو محل العواطف

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٥٣، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، أخرجه النسائي رقم ٤٣١٨ وابن حبان رقم ٣٢٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه عند أحمد رقم ٩٦٩١.

(٣) أخرجه أحمد رقم ١٢١٢٨ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٨٣ والترمذي رقم ٢١٤٠ وحسنه وابن حبان رقم ٩٤٣ والحاكم رقم ١٩٢٦ وصححه، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠، ص ١٧٦.

(٤) على خلاف في هذه المسألة، هل هو العقل الإيماني أم هو العقل المدرِك، وهل القلب يشمل الدماغ والعقل أم لا يشمله، وقد سبق الكلام عن ذلك.

والشعور بها، ففيه الميل والرغبة إلى الحق أو إلى الشر، إلى المصلحة الحقيقة أو إلى الشهوة، وهو محل القرار والإرادة.

المبحث الثالث

أنواع القلوب

ودرجاتها بين التدسية والتزكية كما بينتها النصوص وخلاصة تزكيتها

القلب في سبيل إصلاحه يترقى درجات، فيتحول من صفة مذمومة إلى صفة محمودة، ويكون على حال ويصير إلى حال أعلى وأجمل وأزكى، وقد نبهت الآيات إلى أنواع القلوب الفاسدة التي يجب أن يتطهر القلب من أمراضها ويتزكى، حتى يصل إلى القلب السليم:

القلب الشيطاني:

وهو الذي يكون مع كفره وفساده وانحرافه؛ يكون حريصاً على إفساد الآخرين وإضلالهم وإدخالهم في الكفر.

وقد ذكر النبي ﷺ هذا القلب في حديث تكلم فيه عن الشر والخير في هذه الأمة، فذكر مرحلة يكون فيها دَخَنٌ[1] مع الخير، وسئل عن الشر الذي يكون بعد الخير فقال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال **قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس**»[2].

وأصحاب هذه القلوب سماهم الله تعالى شياطين الإنس، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

(١) أي اختلاط الشر مع الخير.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٨٤٧، عن حذيفة رضي الله عنه.

وتزكية هذا القلب بتحويل صاحبه وجهته من حب الباطل والشر والأذى والإفساد إلى حب الحق والخير والإحسان والإصلاح.

القلب الذي أغلقت الهداية عنه:

كالقلب المختوم عليه: قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[البقرة: ٧]، والقلب المقفَّل عليه: قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]، والقلب المطبوع عليه: قال تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

وتزكية هذه القلوب تكون بمعالجة السبب الذي كان سبب الختم والطبع والقفل، والتوبة منه.

والأسباب التي تسبب هذه الأمور هي من الأمور الخطيرة الكبيرة التي تتنافى مع الإيمان، من مثل ما ورد في قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

ومن مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ومن مثل قول رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام عن وَدْعِهِم الجمعات أو **ليختمن الله على قلوبهم**، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»(١).

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٦٥ عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم. وفي رواية: «من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها **طبع الله على قلبه**» أخرجه أبو داود رقم ١٠٥٢ والترمذي رقم ٥٠٠ والنسائي رقم ١٦٥٦، عن أبي الجعد الضمري ﷺ.

القلب الميت:

وهو الذي لا يستجيب للحق ولا يبحث عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فقوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أصحاب القلوب الميتة، وقد ذكرهم في مقابل الذين يسمعون الحق فيستجيبون له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، والآية تشعر أن بعض الناس لا قلب له، ولكن هذا غير مقصود، إذ كل إنسان له قلب(١)، لكن الآية تنبه إلى أن القلب يكون ميتاً حينما لا يستعمله صاحبه استعمالاً صحيحاً، فلا يوجهه نحو الحق، ولا يميل به نحو الحق والخير، فهو والذي لا قلب له سواء، فالنتيجة واحدة.

وتزكية هذا القلب تكون باستعمال القلب والانتباه إلى وجوده، وتوجيه القلب الوجهة الصحيحة نحو الإيمان والحق والخير، وإصلاح خواطره.

القلب المريض:

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وحيثما ذكر الذين في قلوبهم مرض في القرآن فالمقصود بهم أصحاب الأمراض القلبية التي تخرج الإنسان عن الإيمان، لا الأمراض التي قد تجتمع مع الإيمان أو الإسلام، فتكون سبباً في نقص الإيمان لا في نفيه كله.

---

(١) فقد وُصِفَت قلوبهم بأوصاف مختلفة كما في هذا المطلب، فالقلوب موجودة.

وتزكية هذا القلب بمعالجة المرض الذي فيه، كالكبر على الله وأحكامه، وكحب غير الله أكثر من حب الله، وكالرياء والعمل لأجل الخلق لا لله، وكالتعلق بالدنيا وجعلِ شهواتها هي المقصود والهدف في الحياة، فكل مرض له علاجه كما سيأتي.

القلب المتقلب:

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وتقلب القلب ينشأ عنه التردد في الحقائق كما بينت الآية ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فلما كذبوا وتشككوا بالحق تقلب القلب والفؤاد.

وتزكية هذا القلب تكون بإزالة التردد من خلال التحقق من الحقائق والرجوع إلى الأدلة والبراهين، والوقوف عند الحق إذا وصل إليه، والبناء على الحقائق التي عرفها القلب لا على الشهوات والنزغات والميول.

القلب الغافل:

قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، والقلب إذا كان عارفاً بالحقائق عالماً بها، ثم تجاهلها بالانشغال عنها يكون غافلاً.

وتزكية هذا القلب بتذكر الحقائق التي يعلَمُها، سواء تذكرها صاحب القلب من خلال القرآن أو التفكر أو الذكر، أو ذكره بها غيره بالتذكير والموعظة.

القلب القاسي:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

وأصحاب القلوب القاسية والمريضة يجد الشيطان إلى قلوبهم منفذاً ليزيدهم بعداً وضلالاً وفتنة، قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: ٥٣].

وتزكية هذا القلب بالتذكير والمواعظ والتفكر والاعتبار، ولقسوته قد يسمع المواعظ فلا يتعظ؛ فيحتاج إلى التخويف والترهيب وإلى تَذَكُّرِ ما يثير في نفسه الخوف من الله وعذابه وعقابه، وقد لا يَخْرُج من قسوته إلا بما يفاجئه من بلاء شديد أو مرض أو من شيء خارج عن إرادته يخرجه عن شهواته ودنياه وعاداته قهراً.

وإذا كانت القسوة ناتجة عن الذنوب؛ فلا بد من الاستغفار وصدق التوبة من الذنب الذي سبب القسوة.

ـ فإذا تخلص الإنسان من هذه الأوصاف في قلبه ومن الأعمال التي تسببها، يصير طاهراً من الكفر مؤهلاً لأوصاف السلامة، فأول أوصاف السلامة الإيمان وانتفاء ما ينقضه، ثم ينبني على ذلك أوصاف كثيرة كالإخلاص لله والتوكل عليه والشكر له والخوف منه، وغير ذلك.

القلب السليم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والآية تشعر أنه لا بد حتى ينجو الإنسان أن يكون قد حصل درجة السلامة، فهي أدنى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان والمسلم.

وتزكية هذا القلب: بالثبات على سلامته والعمل وفق وجهته، وبترقيته بالتعمق في التحقق بدقائق أوصاف القلوب السليمة ومقاماته العالية وأعماله وآدابه الدقيقة.

ـ ثم يترقى القلب في صفاتٍ مِنْ صفاتِ السلامة كصفة الإخبات والاطمئنان وغير ذلك:

القلب المُخْبِت:

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وتزكية هذا القلب: بالثبات على الإيمان، فيكون مستأهلاً لمزيد الهداية، كما بينت الآية.

القلب المطمئن:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى ذاكراً قول إبراهيم في سبب طلبِه رؤيةَ إحياء الموتى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وتزكيته بالمحافظة على طمأنينته بالثبات على أعمال الشرع ودوام الركون إلى الله والاعتماد عليه.

المبحث الرابع

العلاقة بين العقل والقلب والجسد

العلاقة بين العقل والقلب:

ـ إن القلب يتلقى الحق من العقل، ويدرك خطاب الله لعباده، ويعقل رسالة الرسل، فيصل الحق والخير من جهة العقل وأوامره ومعلوماته.

وإذا لم يكن الإنسان قد أعطى عقله حقه من التفكير والتعرف على الحقائق، أو فعل أشياء تحول دون ثبات الحقائق في العقل؛ فإنه يتولد فيه أوهام تحرك القلب وتوجد فيه رغبات باطلة وشهوات خسيسة، ويندفع من هذه الرغبة إلى أعمالٍ باطلة أو شريرة.

أمثلة ذلك: الذي يشرب الخمر ويراها لذة، ويزني ويراه لذة، ويرتشي ويراها مصلحة، ويقتل ويراها منفعة، وفي المقابل: الذي يصلي ويراه مصلحة رغم أنه تعب، ويقوم الليل رغم أنه تعب وسهر، ويصوم ويراه منفعة، رغم أنه جوع وعطش وضعف، ويتصدق بماله ويراه مصلحة رغم أنه يقلل ماله، فالأول نظر إلى اللذة القريبة، ونسي الأسى والألم الذي يتلوها في الآخرة، والثاني نظر إلى اللذة الكبيرة البعيدة الدائمة الأخروية، وتناسى الألم القريب الخفيف.

صراع القلب بين الحق والوهم:

ـ وقد يكون في عقل الإنسان وقلبه جوانب من الحق والخير وجوانب من الباطل والشر، فيقع صراع في القلب بين نداء العقل وما يحمله من حقائق، وبين نداء الأوهام والباطل في القلب، ويدخل الشيطان ليزين هذه الأوهام ويقوي خاطرها في النفس ويحببها ويدفع إليها أيضاً.

وبقدر ما يكون عند الإنسان نور من نور الفكر ونور القلب ونور العمل بقدر ما يكون قوياً في دفع الباطل ورده، قال تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وبقدر ما يكون النور خافتاً أو الظلمة غالبة؛ بقدر ما يغلب الشيطان وتسيطر الأوهام، ورفاقُ السوءِ يصرفون الإنسان أيضاً عن طريق النور إلى الظلمة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد نبه النبي ﷺ إلى اختلاف القلوب وتفاوت حظها من النور، ونبه إلى حالة الصراع التي تكون في بعض القلوب، فيكون فيها مدد للخير ومدد للشر، قد يغلب هذا وقد يغلب هذا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعةٌ؛ قلبٌ أجْرَدُ[1] فيه مثل السراج يزهرُ، وقلبٌ أغلفُ[2] مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ[3]، وقلبٌ مُصَفَّحٌ[4]، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلفُ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرفَ ثم أنكرَ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة **يمدّها** الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحةِ **يمدها** القيح والدمُ، فأي المدتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه»[5].

---

(١) أي لم تعلق فيه شوائب، فليس فيه فساد ولا حقد ولا غش، باق على أصل الفطرة.

(٢) أي الذي عليه غلاف وغطاء.

(٣) أي مقلوب، فهو كالإناء المقلوب لا يبقى فيه شيء ولا خير.

(٤) أي ذو صفيحتين أي وجهين، فله وجه إلى الإيمان، ووجه إلى المعصية أو النفاق أو الكفر.

(٥) أخرجه أحمد رقم ١١١٤٥، ونحوه عند ابن أبي شيبة رقم ٣٧٣٩٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١، ص ٦٣: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وقال ابن كثير عن إسناد أحمد: إسناد جيد حسن، والحديث قد صح موقوفاً عن حذيفة رضي الله عنه، ومثل هذا الحديث إنما يلتقط من مشكاة النبوة، فهو في حكم المرفوع.

وكثير من قلوب المسلمين اليوم قلوب مصفحة، عافانا الله وإياهم، فتجد الكثير منهم يتقلب بين طاعة وصفاء في ساعة، وبين معصية وشهوة في ساعة، وقد تجد عند بعضهم ساعات الطاعة أكثر، وقد تجد عند بعضهم ساعات الشهوة والمعصية أكثر.

وما دام في القلب صراع بين الخير والشر، والعفة والشهوة؛ فهو في حالة تقلُّب، تجده في حال طيب ساعة، وفي حال دنيء ساعة أخرى، لذلك علمنا النبي ﷺ أن نطلب من الله أن يمنع تقلب القلب إلى الشر، وأن يثبت لنا حالة القلب بما يتفق مع دين الله وشرعه ومرضاته، فكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

وقد جاءت البشرى من رسول الله ﷺ للمؤمن الذي يتقلب أنه يصير حاله إلى خير بإذن الله، قال ﷺ: «مثل المؤمن كالخامَة[(٢)] من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة[(٣)]، ومثل المنافق كالأرزة[(٤)] لا تزال حتى يكون انجعافها[(٥)] مرة واحدة»[(٦)].

---

(١) أخرجه أحمد رقم ١٢١٢٨ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٨٣ والترمذي رقم ٢١٤٠ وحسنه وابن حبان رقم ٩٤٣ والحاكم رقم ١٩٢٦ وصححه، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠، ص ١٧٦.

(٢) أي لينة غضة، انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٨٩، وهو كناية عن لين القلب وتحركه وتأثره.

(٣) وزاد هنا في رواية عند البخاري «تكفأ بالبلاء» وفي رواية عند مسلم زاد: «ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء»، وزاد في رواية: «حتى يأتيه أجله».

(٤) وفي رواية لمسلم: «ومَثَل الكافر كمثل الأَرْزَة المُجْذِيَة على أصلها» وفي رواية: «المنافق»، ومعناه كشجرة الأرز ثابتة منتصبة، لا تتحرك ولا تتأثر حتى تقلع، أي إن المنافقين والكافرين لا يتأثرون بالبلاء ولا تتحرك قلوبهم حتى يموتون على ما هم عليه من الكفر والنفاق.

(٥) أي انقلاعها، وهو كناية عن موت المنافق ولا زال على ما هو عليه.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٣١٩ ومسلم نحوه رقم ٢٨١٠ عن كعب بن مالك ﷺ.

علاقة القلب بالجسد، وانحراف القلب في غياب العقل والغفلةِ عن استعماله:

ـ جسد الإنسان هو آلة منفِّذَة، يندفع إلى الأعمال بدافع قلبي من رغبة داخلية باطنية في القلب، والقلب يتلقى أوامره من جهة العقل، الذي هو محلُّ إدراك الخطاب والتكليف.

لكن على الرغم من ذلك؛ فكثيراً ما تَدخلُ الرغبة القلبية الباطلة نحو الشهوة والمَفسدة والمعصية نتيجة فِعل الجسد، وذلك كأن يزني الإنسان فيجد لذة في الزنا، فيحب الزنا ويرغب فيه، ويسرق فيجد لذة في كثرة المال بلا تعب، فيرغب قلبه بالاستزادة من المال عبر السرقة، أو يشرب الخمر وينتشي بغياب عقله فيرغب قلبه في شرب الخمر، فإذا تكونت الرغبة في القلب ولم يكن قد استعمل عقله من قبل، ثم استعمله وعرف الحق، فوجد بعقله أن هذه الأمور مفاسد، وقلبه يميل إليها ويرغب بها، فيحصل هنا صراع بين ما يدعو إليه العقلُ، وبين ما يدعو إليه القلبُ الذي تحركت فيه الشهوة والرغبة مع غياب العقل، فقد يبقى في صراع بين الطرفين حتى يجزم ويعزم ويجدد اختياره بصدق، ويجاهد رغبته القلبية في سبيل اتباع داعية العقل.

وبناءاً على هذه القاعدة فإن الرغبات القلبية ـ من حيث الواقع ـ ليست دائماً تبدأ من العقل، وإن كان هذا هو الأصل، ولكنها قد تبدأ بسبب الجسد وأعماله ومعاصيه وتقليده للناس مع الغفلة.

ـ والقلب عليه مدار الخير أو الشر في نفس الإنسان، قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩.

ومعظم صلاح القلب راجع إلى تحديد مرادك وهدفك من هذه الحياة، فإن كنت تريد خيراً فالقلب صالح، يستجيب لنداء الخير والحق، وإن كنت تريد الفساد والشهوة والشر فالقلب فاسد، يستجيب للشر.

وعندما يغلب الخير في القلب، ولا يبقى للشر جذور ولا دواعي، يزول الصراع في القلب والنفس، فتطمئن وتركن إلى الله وإلى أحكام الله، فيكون الإنسان قد تحقق بذلك في العبودية، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، ومِن أعظم ما يعين على الوصول إلى حالةِ الطمأنينةِ هذه ذكرُ الله، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

آلية عمل القلب حتى يصل إلى الأعمال الصالحة:

ـ الصفات القلبية السليمة مطلوبة لذاتها، ومطلوبة لتدفع ولتؤدي إلى قيام الجوارح بالأعمال الصالحة، وحتى يكون عمل القلب سليماً، وحتى يصل الإنسان إلى العمل الصالح فإنه يمر القلب بمراحل:

أولهـا: أن **يؤمن** القلب ويقر بالحقائق والمعارف والعقائد السليمة التي أدركها العقل.

وثانيها: أن **يتذكرها** ويتفكر فيها ولا يغفل عنها، لينتبه إلى ما تقتضيه من رغبات في القلب وأعمال على الجوارح.

وثالثها: أن **يرغب** بالسير على وفق تلك الحقائق.

ورابعها: أن يتولد من هذه الرغبة **إرادة** جازمة تُحرِّك الجسد إلى **العمل** بما يتفق مع تلك الحقائق التي آمن بها ورغب بما تقتضيه.

ولا يكفي أن يعرف الإنسانُ الحقَّ ويميل إليه، ثم يتركه، بل لا بد أن

تكون إرادة القلب متوجهة إلى العمل بهذا الحق والخير، والسعي إليه، فتوجد الإرادة الدافعة إلى قبول هذا الحق ثم العمل به.

ثم إذا وجد في نفسه معارضة للحق، فلا بد أن يُجبِر نفسه ويخالف نفسه **ويجاهدها**، ويحملها على الحق ويردها إليه.

ولا بد مع ذلك من **معالجة الأمراض القلبية** والنفسية التي تمنع هذا القلب من الرغبة الصحيحة والإرادة الصحيحة، ومعالجة الرغبات الباطلة التي تعارض الرغبة بالحق والخير.

فتتلخص واجبات القلب ـ بعد إدراك الحق ومعرفته ـ في هذه الأمور: خاطر سليم، وتذكر له، ورغبة موافقة للحق، وإرادة جازمة لما يقتضيه الحق، ومجاهدة للرغبات المنحرفة، ومعالجة للأمراض القلبية، فإذا فعل الإنسان ذلك وجدت الصفات السليمة في القلب، وظهرت بناءاً عليها أعمال صالحة على الجوارح.

ومن جمع هذه الأمور فقد زَكَّى قلبه.

المبحث الخامس

تزكية القلب بين التطهير والترقية

تزكية القلب تشـمل جانبين: جانـب التطهير بمعالجة الأمـراض القلبية المعنويـة والتخـلي عنها، وجانـب الصلاح والترقيـة بالتحلي بالصفـات القلبية السليمة.

الصفات القلبية السليمة والتدرج في نشوئها:

ـ والصفات القلبية السليمة التي يجب التحقق بها والتحلي بها؛ قد يتحقق الإنسان بأي واحدة منها فتُعِينه على التحقق بغيرها، وقد يتحقق جزئياً ببعضها ويترقى شيئاً فشيئاً، ويمكن أن تكون سُلَّماً يوصل بعضها إلى بعض، فأولها: **الإيمان**، ومن دونه لا تتحقق أي صفة سليمة، فإذا آمن الإنسان **رجع** إلى الله وأناب واستيقظ، وترك الإعراض عنه والغفلة، وإذا رجع إلى الله **تاب** مما سلف منه، وإذا أراد أن يتوب فأعظم ما يقيده عن التوبة وجود الشهوات، فاحتاج إلى **الزهد** ليذهب التعلق بالدنيا وشهواتها، فيقدرَ على التوبة، وإذا زهد ذهبت الموانع والتعلقات التي تحول دون التعلق بالله والحب له، فيدخل مقامَ **الحب**، وحبُّ الله ـ مع اتصافه بالربوبية والألوهية والجلال ـ لا يكون مقبولاً إلا إذا كان معه تعظيم **وخوف**، والخوف لا بد أن يُوازِنَه **الرجاء**، وكيف ترجو الله وأنت لا تُقَدِّرُه ولا تقدر فضله ونعمته؛ فتأتي الحاجة إلى **الشكر**، والشكر يدفع إلى العمل الصالح الذي أمر الله به قياماً بحق الله، فإذا أراد القيام بالعمل ـ فعلاً وتركاً ـ يحتاج إلى **الصبر** فيه،، فإذا قام بالعمل واندفع إليه فلا يكفي وجود العمل، بل لا بد أن يكون القلب **مستسلماً راضياً** بحكم الله في كل عمل من الفعل والترك، فإذا وجد الرضا عن أحكام الله يمكن أن توجد **الاستقامة** على

كل أمر من أوامر الله، وإذا قام بالعمل فلا بد أن ينتبه أَنَّ ما قام به لا يستطيع أن يقوم به إلا بعون الله، فيعتمد على الله في كل سبب وعمل يأتيه، وذلك هو **التوكل**، وإذا عمل راضياً متوكلاً؛ فلا قيمة للعمل ما لم يكن **مخلصاً** فيه لله تعالى قاصداً وجهه يبتغي فضله، فوجب الإخلاص، فإذا حقق هذه المقامات القلبية مع الموافقة والمتابعة للشرع في ظاهره؛ فقد تحقق **بالعبودية**، وإذا دام على هذه العبودية وهو ملتفت إلى أن الله يراه؛ فقد دخل في رتبة **المراقبة والإحسان**.

وعلى هذا الترتيب سيأتي تفصيل هذه المقامات، مع التنبيه إلى أنه يمكن أن تنمو عند الإنسان على نحو آخر وترتيب آخر فيدفع بعضها إلى بعض على ترتيب مختلف.

وهذه الصفات جميعاً تنشأ وتتمكن ـ بعد تَعَرُّفِ العقل على الحقائق ـ **بالخاطر** الذي **يتذكر** الحقائق، حتى تصير أحوالاً في القلب وصفات، وينشأ عنها أعمال حينما تولِّد **رغبات** فتنشأ عنها **إرادة**.

وكل ذلك سنبينه في هذا الكتاب.

أمراض القلوب ووجوب التطهر منها على اختلاف درجاتها:

ـ وأمراض القلوب التي يجب التطهر منها تتنوع وتتفاوت على درجات، فالمرض يمكن أن يكون عميقاً وخطيراً إلى درجة أن يكون كفراً، أو يكون مؤدياً إلى الكفر، وقد يكون دون ذلك بحيث يؤدي إلى كبائر قلبية لا تصل إلى الكفر، وقد يكون قليلاً بحيث يؤدي إلى ضعف الإيمان أو يمنع من حصول مقام الإحسان، ولا يصل إلى حد المعصية أو الكفر.

وهذان مثالان يبينان لك كيف تتفاوت أمراض القلوب:

١ . **الكبر**، إذا كان كبراً وترفعاً واستعلاءً على الله وعلى الحقائق الكبرى

فإنه كفر، أو يؤدي إلى الكفر، وإذا كان الكبر ترفعاً على الناس بأن يعتقد أن له المزية عليهم فذلك معصية كبيرة، وإذا كان الكبر تكبراً عن مجالس العلماء والصالحين دون التكبر عليهم ودون استحقار مرتبتهم؛ فهذا الكبر يفقد الإنسان بركة مجالسهم التي تكون سبباً في ترقيهم.

٢. **الحسد**، إذا كان حسداً للأنبياء الذين آتاهم الله النبوة فذلك يوصل إلى الكفر، وإذا كان الحسد تمنياً لزوال النعمة عمن أوتي من الدنيا أو الجاه أو العلم فذلك من المعاصي من كبائر القلوب، وإذا كان الحسد للصالحين والعلماء في علمهم؛ منع من الانتفاع منهم(١).

ـ والله تعالى أمرنا بتطهير قلوبنا من جميع المعاصي الباطنة القلبية، كما أمرنا بتطهير أجسادنا من جميع المعاصي الظاهرة، فقال سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والأمراض القلبية التي تصل بصاحبها إلى الكفر؛ هي الأخطر، لأنها إذا وجدت في القلب منعت صاحبها من الانتفاع بالحق، ومهما عرف من الحقائق والعقائد؛ فإن مرض القلب يحول دون قبولها، فيعلن الكفر بدل الإيمان، ويتنكر

(١) وسنذكر في الفصل الثاني أهم أحوال القلوب التي يجب أن يطلب المبتدئ التخلق بها، ونذكر ما يقابلها من أمراض القلوب في درجة المعاصي القلبية، لأنه بمجرد التحقق بالحال السليم ينتفي ما يقابله من المرض القلبي، وسنزيد ذلك تفصيلاً في المرحلة الثانية إن شاء الله، وفي المرحلة الثانية أيضاً نبين دقائق في أمراض القلوب مما يمنع من الترقي أو زيادة الإيمان والدخول في رتبة الإحسان.

للحق ويعرض عنه، ويتقبل الباطل بسبب المرض الذي في قلبه، وقد تحدثنا عن هذه الأمراض في تزكية العقل والفكر تحت عنوان: «وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد»(1).

إن الحقائق العلمية والمعقولات التي ذكرناها في المنهج الفكري للمبتدئ، والتي يعقلها العقل ويدركها ويفهمها ويدرك صحتها ويدرك أنها حقائق؛ لا تكفي وحدها لصناعة التزكية في الإنسان، ما لم يتجاوب معها في قلبه برغبته وإرادته، ثم يسعى ويتحرك على ضوئها بأعماله الجسدية، وما لم يجعل ميله القلبي والنفسي إليها؛ فإنها تصير كالمعدومة المجهولة عند من يميل بقلبه إلى خلافها.

فمعرفة الحقائق والاستيقان بها لا يفيد إذا لم يقبلها القلب ويقرَّ بها ويؤمن بها ويخضع لها، ولا يستفيد منها الإنسان إذا كان يستكبر عن قبول الحق، ولا يستفيد منها إذا كان يقرر بهواه أشياء يدعي أنها الحق، بدلاً من أن يرجع بعقله إلى الله وشرعه، كما لا يستفيد منها إذا كان ينشغل بشهواته وينسى هذه الحقائق، ومعالجةُ هذه الأمور وأمثالها من الأمراض القلبية التي تحول دون الاستفادة من الحقائق الثابتة؛ هو من علم التزكية، بل هي الأهم في علم التزكية، وهي البداية القلبية الصحيحة لتزكية النفس والقلب.

العلاقة بين تطهيرِ القلب من أمراضه وبين تحقُّقِه بالأحوال السليمة:

إن الإنسان إذا تحقق بأي صفة من صفات القلب السليم؛ فإنه يكون قد تطهر تلقائياً مما يقابلها من مرض، وإذا كان مريضاً بمرض من أمراض القلوب؛ فإنه يرافق ذلك خلوه من الصفة السليمة التي تقابل ذلك المرض،

(1) وقد تحدثنا عنها في جزء: تزكية العقل والفكر.

لذلك فإذا سلك السالك مسلك التحقق بالصفات السليمة فإنه لا يحتاج إلى شيء آخر ليتخلص من أمراض القلوب، وإذا سلك مسلك التخلص من أمراض القلوب فإنه لا يحتاج إلى شيء آخر حتى يتحقق بالصفات السليمة.

لكن قد يكون الإنسان ضعيف التحقق بالصفات السليمة، فيكون قلبه متقلباً بين حالة تزكوية وحالة مَرَضِيَّة، فيحتاج إلى أحد المسلكين أو كلاهما حتى يَثبُتَ على حالته التزكوية القلبية السليمة.

المبحث السادس

خواطر القلب ومنهج التعامل معها

الخواطر القلبية هي من الأشياء المهمة في النفس، يترتب عليها أثر كبير في تزكية النفس أو تدسيتها، فالخاطر الذي يجري في الفكر والقلب إن كان باطلاً أدى إلى رغبات باطلة وعواطف منحرفة وإرادات سيئة، والخاطر الحق يؤدى إلى رغبات سليمة وعواطف طيبة وإرادات صالحة.

ـ وهذه الخواطر التي تجري في القلب وتدور في البال؛ منها ما هو حق ومنها ما هو باطل.

ومنها ما يصنعه الإنسان بنفسه، ومنها ما يجري بلا إرادته، ومنها ما يكون من غيره كالملك أو الشيطان، أو يكون بسبب ما يسمعه ويراه.

ومنها ما يحاسَب عليه الإنسان، ومنها ما لا يحاسب عليه.

ومنها ما يجب قبوله، ومنها ما يندب قبوله، ومنها ما يجب رده، ومنها ما يجوز إقراره، ومنها ما يُفَضَّل الإعراض عنه إلى ما هو أحسن منه.

وكل ذلك له أحكامه الشرعية وأدلته التي سنفصلها في مرحلة المتوسط، لكننا نقتصر هاهنا على الكلام في بعض جوانب ذلك:

ـ نبهنا الله تعالى إلى هذه الخواطر التي تكون في النفس والقلب في آيات كثيرة، وأنه يَعْلَمُها، وأنه لا يخفى عليه ما فيها من حق أو باطل، وأنه يحاسبنا عليها، نبهنا إلى ذلك لنجعلها محل انتباهنا وإصلاحنا وتزكيتنا، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣] وتدل هذه الآية على أن الخاطر الذي يُسِرُّه الإنسان ويُخفيه يُعدُّ قولاً، وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقد تكون الخواطر من الشيطان وتسمى وسوسة، قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ * ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

وقد تكون الخواطر من الملك وتسمى إلهاماً، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمرني إلا بخير»(١).

ـ من واجب القلب أن تكون خواطره سليمة صادقة معقولة توافق الحق وتحب الخير، فيسعى المسلم إلى أن يصير قلبه على حالٍ لا يَجُول فيه باطل، ولا يقبل معه إلا الحق، ولا ينتظر من الشيطان أن يقذف فيه خواطر الباطل،

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨١٤ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

بـل يُبقي قلبه منشـغلاً بالحق متذكراً له، حتى تتولد منه رغبات سـليمة وميول موافقـة للحـق، فإذا وجـدت الرغبة والميل السـليم الموافق للحـق الذي أدركه العقل وعرفه، فقد توجه القلب وجهته الصحيحة.

ولا ينبغي أن يكتفي الإنسـان بتوجيه الخواطر التي تخطر في باله توجيهاً صحيحـاً، بـأن يقبـل الحق منهـا، وينكر الباطـل منها، بل لا بد أن **يسـتجلب في قلبـه الخواطـر الصحيحة ويتكلف صناعتها وإيجادهـا**، بأن يذكر الحق، من خلال الأسـباب المعينة على تذكره من ذكر أو تلاوة قرآن أو تفكر أو عبادة أو الاسـتماع إلى الصالحين، فإن **الخواطر لا تنفك عن الإنسـان ولا تسكت**، وإنما يتقلـب القلـب بـين خاطر وخاطر، كما قـال ﷺ: «تعرض الفتـن على القلوب عـوداً عـوداً كالحصير» فقوله: «عَوداً عَوداً» أي مرة بعـد مرة، أو تُقرَأُ: «عُوداً عُوداً» فالخواطر كأعواد الحصير لا فراغ بينها، فيأتي الخاطر تلو الخاطر، **فإن لم تأت أنت بخاطر من عندك كما تريد وكما يريد الله؛ جاءك الخاطر من الشيطان أو من شـهوات النفس**، فعليك أن تبادر بالخاطر الصالح قبل أن يهجِم عليك الخاطر السيء، الذي يشـغلك بما لا تريد، وبما لا ينفعك، وتسـتطيع أن تصنع الخاطر السـليم الصالح من خلال شـغل نفسـك بالعبادات التي تذكرك بالله وصفاتـه وتذكـرك بالحقائق المتعلقة بذلك، والذكر والقرآن لهما شـأنهما الكبير في ذلك.

ومما يعكر على الإنسان خواطره: الأوهام والهموم، وعلاج الأوهام: بالعلم ومجالسة العلماء والبحث عن الحق، وعلاج الهموم: الرضا بقضاء الله، والبحثُ عن الطريق الشرعي للخروج من بلائه ومشكلاته، والعملُ به، والاعتمادُ على الله لا على نفسه في حَلِّ مشكلاتِه التي أهمَّتْه وأغمَّتْه مع الاستعاذة بالله من الهم والغم، فتتحول خواطره من خواطر فيما أهمَّه وأغمَّه وفي مشكلاته إلى خواطر في اللجوء إلى الله ورجائه ودعائه وحسن الظن به والاستسلام له.

ـ وأشد من الشيطان أثراً على القلب وخواطره: **الإعلام الفاسد.**

- مِنْ فكر منحرف يُروَّج وقول باطل يزيَّن، وحقيقة تُحرَّف.
- مِن أفلام ومسلسلات موجهة للإفساد والشهوة والغفلة.
- مِن أغاني ماجنة، أو رقص وإظهار للمفاتن والعورات.
- مِن بَرامج ملهية أو ترفيهية.

كل ذلك يَشُدُّ العقولَ ويَجْذِبُ القلوب، ويجعل القلب يجول في خواطر مع ما يرى أو يسمع من الباطل والأوهام والشهوات، فتتسلل هذه الخواطر إلى القلب وتغلبه وتقوده، لا يكاد يستطيع أن يقاومها، ولا أن يصحو منها، تأخذه من غير انتباه، تَزُجُّهُ في الغفلة عن الله وهو لا يشعر، وتلعب بفكره وهو لا يعلم، وتؤثر في قلب الإنسان وتفسد ما لا يفسده الشيطان، وتعمل ما لا يستطيع الشيطان أن يعمله، ولا يكاد يسلم منها إلا قليل من الناس، من الصالحين النابهين المراقبين لله المجاهدين لأنفسهم الواعين لواقعهم وكيد أعدائهم.

لذلك حذرنا الله من شياطين الإنس كما حذرنا من شياطين الجن، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]، فبين الله تعالى أنهم يزينون الباطل ويزخرفونه ويخدعون الخلق ويغرونهم، وبين أن الذين يستمعون إلى ذلك ويُصغون إليه ناسٌ أهلُ عصيان، غابت عنهم الآخرة.

وحذرنا الله من أن الذين نصاحبهم من أهل الباطل قد يضللون عقولنا ويحرفوننا عن الطريق، إذا لم ننتبه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ

﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا * يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا * لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾[الفرقان: ٢٧-٢٩]، فواجبنا أن نحذر أن نصاحب المفسدين والمنحرفين والمضلين وأهل الشهوات، سواء في حياتنا العادية أو من خلال وسائل الإعلام كالتلفاز والانترنت والمجلات.

وواجب المسلمين أن يسعوا إلى إعلام إسلامي طاهر يعلم الحق، ويشغل القلوب بالحق، ويجذب النفوس إلى الخير، وواجبهم أن يجتهدوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يزيلوا المنكر من الإعلام الفاسد المفسِد.

ـ خواطر الإنسان منها ما يكون مِن نفسه، مِن ميله إلى الحق أو ميله إلى الباطل، ومنها ما يكون من غيره وهي فاسدة كالخواطر والوساوس التي تأتي من الشيطان، وقد تكون من غيره وهي صالحة كالخواطر والإلهامات التي تأتي من ملك الإلهام، وقد تكون من غيره من الناس، فتكون خيراً أو شراً بحسب صلاحهم وصدقهم وعلمهم أو فسادهم وكذبهم أو جهلهم.

فإذا كانت من نفسه فصلاحها مرتبط بإدراك الحق ومعرفته وتذكره، واستحضار خاطره، وصلاحها أيضاً بصرف النفس عن الخاطر الباطل السيء، وإنكاره، وعدم التمادي معه، مع مجاهدة النفس في شهواتها التي ترغب بها النفس، فتتحرك الخواطر بها، ولا بد من قطع أسبابها حتى يتم علاجها.

وإذا كانت الخواطر من تأثير حديث الناس، فإن كانت حقاً من أهل الحق، فهذه يحرص عليها وينتفع منها، ويحرص على استدامتها، بكثرة الجلوس مع الصالحين والعلماء والصادقين.

وإن كانت خواطر باطلة من أهل الباطل، فهذه يجب علاجها بالانتباه إلى الباطل ومنطقه المُضَلِّل، وبالبعد عن أهل الباطل، وترك مجالسهم ومخالطتِهم والسماع إليهم.

وإذا كانت الخواطر من الملك، تدعو إلى الحق والخير والطاعة؛ أطاعها وتَقبَّلَها.

وإذا كانت الخواطر تجري في نفسه ولا يستطيع أن يميزها، حقاً أم باطلاً أم لهواً، وهل هي مِن النفس أم مِن الشيطان أم مِن الملَك، فالواجب أن لا يأخذ بها ولا يسترسل معها، حتى يرجع إلى حكم الشرع إن كان عالماً به، ويسأل عنها إن لم يكن يعلم، فإن وجدها موافقة للحق اعتقاداً أو علماً أو عملاً أخذ بها بغض النظر عن مصدرها، وإن وجدها مخالفة للحق والشرع، طرحها، ولم يلتفت من أين مصدرها.

وإذا كانت الخواطر من الشيطان(١)، تدعو إلى المعصية والشهوة والباطل أو إلى الكفر والشك، فيجب إنكارها وردها، قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً كالحصير، فأي قلب أشربها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيها نكتة بيضاء»(٢)، ويجب الرجوع إلى حكم الله، ويعينه على تجنب فتنة الشيطان: أن يستعيذ بالله منه، فالله قوي يقدر عليه، وأن يحسن الظن بالله ويعلم أن الشيطان إنما يدعو إلى الباطل ويشكك برحمة الله، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وليحذر المؤمن من الغضب فإنه منفذ للشيطان، وليحافظ على الكلمة الطيبة فإنها تفوت على الشيطان نزغه وإفساده بين الناس، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

---

(١) وقد مر معنا في الباب الثاني: تزكية العقل والفكر؛ شيءٌ من التفصيل حول كيفية التعامل مع فتنة الشيطان ووساوسه، ضمن الحديث عن أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق، تحت عنوان: قبول وساوس الشيطان والانخداع بغروره وأمانيه الباطلة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة بن اليمان ﷺ.

المبحث السابع

التذكر ووسائله
هو مصنع الصفات القلبية السليمة

مهما حاول الإنسان أن يزكي نفسه وقلبه؛ فإن سيره في تزكية النفس يبقى ضعيفاً، ما لم تتهيأ له البيئة المناسبة للبعد عن المعاصي وأسبابها، والبيئة المناسبة لإقامة الطاعات والتقرب إلى الله.

وأهم أمر ترجع إليه تزكية القلب، وتتهيأ به البيئة المناسبة لتزكية القلب وتطهيره؛ هو **التذكر**.

فبعد معرفة الإنسان للحقائق، لا بد أن يتذكرها وأن تكون حاضرة في قلبه حتى توجِد تعلُّقاً نفسياً صحيحاً، وتوجهاً قلبياً سليماً، وتدفع إلى عمل صحيح.

لذلك أَمَرَنا الله تعالى بالتذكر وعنف الذي لا يتذكرون، في مثل قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٥]، ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٣].

ومدح الله تعالى أهل التذكر، وبين أن التذكر لا يكون إلا من أهل العقول والقلوب وأهل الإنابة والرجوع إلى الحق: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

وبين الله أن **التذكرَ من أسباب النفع والتأثير**، وخاصة في المؤمنين، وقد ينتفع به غيرهم، فقال ربنا سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩]، أي لعلها أن تنفع،

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس: ٣-٤]، وهذه الآية وردت في قول الله لموسى في حق فرعون، وهي تعلمنا أن لا نيأس من التذكير حتى مع فرعون وأمثاله من المستكبرين وأئمة الكفر، فربما انتفعوا من التذكير.

وأمر الله أنبياءه صلوات الله عليهم وسلامه أن يكونوا مُذكِّرين للناس، قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، كما أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون مذكراً لقومه بآيات الله تعالى الدالة على رحمته وإحسانه وآياته الدالة على قدرته وقوته ونقمته: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: ٥].

وكما أَمَرَنا الله بالتذكر[1]؛ نهانا عن ضده وهو الغفلة، وبين لنا أن مشكلة أكثر الناس في الغفلة، وحُذِّرنا من فسادها ونتائجها الخطيرة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

فاحرص أيها المسلم على التذكر في يوم تستطيع أن تنتفع فيه من الذكرى، قبل أن يأتي يوم يتذكر فيه الجميع، ولكن لا ينتفع من تلك الذكرى إلا من انتفع منها في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

(١) يتكلم عادة علماء التزكية عن هذا الموضوع أو قريباً منه، فيتكلمون عن التذكر وما يقتضيه، فيسمونها: يقظة، وضدها الغفلة.

الوسائل المعينة على التذكر:

لقد شرع الله تعالى وسائل عملية كثيرةً تعين على التذكُّر(١)، وأهمها: قراءة القرآن، والذكر، والتفكر، وصحبة الصالحين والشيوخ المربين الصادقين، وإقامة العبادات وعمل الجوارح بها، وفيما يأتي بيان ارتباط هذه الأمور بالتذكر، وبيان كونها أسباباً له:

١. **قراءة القرآن الكريم**: قراءة القرآن مع التدبر لما فيه من حقائق ومواعظ وتنبيهات وتذكيرات، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥١] ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

٢. **ذكر الله تعالى**: ذكر الله مع الحضور، واستحضار صفاته، وتعظيم جلاله، ورؤية فضله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فالأوقات في الليل والنهار خلقها الله تعالى يخلف بعضها بعضاً لتكون محلاً للتذكر ولشكر الله سبحانه.

٣. **التفكُّر**: إعمال العقل في التفكر في فعل الله وخلقه، وما يؤدي إلى معرفة صفاته، والله تعالى نبهنا في آيات كثيرة إلى أن المخلوقات والتفكر فيها أسباب للتذكر، في مثل قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ

---

(١) وهذه الأمور: قراءة القرآن والذكر والتفكر وصحبة الصالحين والشيوخ وغيرها من العبادات؛ تكلمنا عنها في التزكية العملية بتفصيل، وإنما أردنا هنا أن نشير إلى كونها أسباباً للتذكر.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٢].

٤. **صحبة الشيوخ والصالحين والصادقين:** قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] فالعارف الخبير بالله تسأله فيعرفك عن الله تعالى ويذكرك به وبصفاته وأفعاله، وتسمع مواعظه ودروسه فيوصل إليك ما أراد الله أن يوصله إليك مما أوحى به على أنبيائه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٥١].

ومن واجب الشيوخ المُرَبِّين أن لا يَكُفُّوا عن تذكير الناس، عسى أن ينتفعوا: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [عبس: ٣-٤].

وإذا كان من واجب أستاذ العقيدة أن يوصل الحقائق والعقائد، فأستاذ التزكية يُذَكِّر بها أيضاً، وإذا كان من واجب أستاذ الفقه أن يوصل أحكام الأعمال، فأستاذ التزكية يُذَكِّر بوجوب تعلمها والعمل بها أيضاً، كما أن من واجب أستاذ التزكية أن يحرك القلوب ويدفعها إلى العمل بمقتضى العقائد والحقائق(١)، ويدفعها ويرغبها ويحثها على العمل بأحكام الله وأوامره ويبين لها أجر ذلك وفضيلته وكرامته وحلاوته، فأكثر عمل الشيخ المربِّي المزكِّي يرجع إلى القلب والتأثير عليه.

٥. **أعمال العبادات:** إن جميع العبادات **التي يؤديها الجسد** ويعملها تُذكِّر القلب بمعاني إيمانية، فكل عبادة ظاهرة، وكل عمل جسدي شرع ليغذي معاني قلبية وليذكر بها، فالسجود ـ مثلاً ـ يذكر بعظمة الله وذلة العبد له، والزكاة تذكر

(١) مثلًا: يذكرهم بأن من اعتقد بقاء الله وفناء الدنيا زهد فيها ورغب في الله وفيما عنده، ومن اعتقد أن الله سميع بصير رقيب لازم المراقبة وتأدب بين يدي الله... فيذكر الناس بما يقتضيه اعتقادهم للحق.

بهوان الدنيا وإخراجها من القلب والتصدق بها لأجل الله، وتذكر برقة القلب وحبه الإحسان إلى المسلمين، والصيام يذكر بفقر الإنسان وحاجته واضطراره إلى الطعام والشراب الذي خلقه الله، ويذكره بأنه ضعيف محتاج إلى نعم الله، ويذكر الصيام بوجوب التجرد عن شهوات النفس، ويُذَكِّرُ الجهاد بأن النفس والمال لله، فإذا طلبهما الله من عبده بذلهما له وهو راضٍ مستسلم، ويذكر الحج بالشكر لله تعالى على نعمة الأنعام، كما يفتح الحج مجالاً واسعاً من الوقت للذكر وللتذلل لله تعالى والإقبال عليه.

فهذه العبادات وغيرها هي ظروف ومحلّات لِنُدْخِل التذكر من خلالها، فنتذكر الحقائق، ونخرج بها عن الغفلة والنسيان، فكلّما كثرت العبادات؛ كَثُرَ التذكر وظهرت آثاره في انتباه القلب وحضور المعاني التي بها توجِد الأحوال والمقامات والصفات القلبية السليمة، كالشكر والصبر والخوف والرجاء والإخلاص والتوكل والأنس والحب وغير ذلك.

ومع كثرة ترديد الخاطر السليم وكثرة التذكر مع وجود الاقتناع به؛ يستقر في النفس وتصير معانيه ومقتضياتُه قريبةً توجه الإنسان تلقائياً بغير تكلف ولا استحضار، فتصير هذه الأحوال القلبية عندئذ سجية في النفس، وتصير الأعمال التي تنشأ عنها أيضاً سجية يتحرك إليها الإنسان بغير تفكير كثير ولا توقف ولا تردد(١).

(١) وهذا ما يعبر عنه كثير من علماء النفس اليوم: **بالعقل اللاواعي** أو **بالعقل الباطن**، ويقول بعضهم: حينما تستقر المعلومة فيه فإنه يتصرف بلا روية ولا تفكير ولا تأخر، والذي نقوله: إنه يتصرف بعقل وتفكير، لكن لاستقرار الحقائق الدافعة والمولدة للرغبات بقوة فيه؛ فإنه يندفع إلى العمل بسرعة وتلقائية، فالمعلومة حاضرة وواضحة ومؤثرة، وليست غائبة، ومثل ذلك فيمن استقر في قلبه الوهم فصار يندفع بناءاً عليه إلى العمل الباطل.

وكلما قلَّت العبادات؛ قَلَّ التذكر وزادت الغفلة، فتظهر أمراض القلوب والمعاني التي بها توجد الصفات القلبية المذمومة، كالرياء وجحود النعمة والتذمر من البلاء والواجبات والتكبر والتعلق بالدنيا وبالأسباب وغير ذلك.

وتنبيهاً إلى ما في العبادات من تذكر وذكر قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقال: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، فسمى أحكامه والقيام بما أمر به ذكراً لما فيه من تذكير بالله وبما يجب تجاهه.

ـ وسوف نبين في كل صفة سليمة من صفات القلب؛ ما هو الخاطر الحق الذي يجب تذكره حتى تنشأ تلك الصفة وتَقْوَى وتثبُت.

المبحث الثامن

الرغبات القلبية الصحيحة

كل إنسان يملك قلباً، وهذا القلب تجول فيه الخواطر والأفكار والأحاديث والهواجس في كل لحظة، كما أن هذا القلب تقتحمه الإلهامات والوساوس دائماً، وكل شيء يمكن أن يخطر في هذا القلب، الخير والشر، والحق والباطل، ووظيفة الإنسان أن يتوجه في قلبه إلى خاطر الخير فيرغب فيه ويقرَّه، ويُبغض في نفسه وقلبه خاطر الشر، وينفر منه وينكره.

وهذا الميل القلبي إلى الحق والخير لا يمكن أن يوجد إلا نتيجة اقتناع عقلي بالحق، واقتناع بالمصلحة والمنفعة المترتبة عليه، والكرهُ القلبي للباطل والشرِّ يوجَد نتيجة الاقتناع بالمفاسد والأضرار المترتبة عليهما.

فالعمل القلبي الأول أن يحب الخير والحق، ويرغب به ويميل في عاطفته إلى ما جاءه من عند الله لأنه هو الخير والحق، فإذا جاءه خاطر خير، أحبه ورغب فيه، وإذا جاءه خاطر شر رفضه وأنكره وكرهه ولم يسترسل معه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك القلب الذي صحت رغبته في قوله عن بعض عباده الذين تابوا ورجعوا إليه فصححوا رغبتهم، فعبروا عن ذلك بقولهم: ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٢]، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩] أي طالبون الحق والخير الذي عنده.

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما رغب في الحق الذي جاء من الله زهد فيما سواه من الباطل وكرهه ورغب عنه، كما وصفه أبوه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذين النوعين من القلوب ـ المحبِّ للخير الراغب فيه والمحبِّ للشر الراغب فيه ـ في قوله عن الفتن التي تعرض على القلوب

وهي خواطر الشر: «فأي قلب أشربها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء»(١).

كما أشار النبي ﷺ إلى أن الناس على صنفين؛ راغبٍ في الحق والخير، وراغبٍ في الباطل والشر، في قوله الذي ذكر فيه أنه يقال في رمضان: «يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر»(٢)، فباغي الخير أي طالبه والراغب فيه والمحب له، وباغي الشر طالبه الراغب فيه المحب له.

ـ إن حصول الإدراك والاقتناع الذي ذكرناه يُوجِدُ رجوعاً وإنابة في قلب الإنسان إلى الله وأحكامه، وهذه الإنابة هي التي تُوَلِّدُ الرغبة والخواطر التي أشرنا إليها، فتجعل قلب الإنسان مهتماً بالخير والحق، فيصير القلب في حالة يقظة وتَذَكُّر، وقد نبه الله تعالى إلى ارتباط هذين الأمرين بقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

ـ وإنما يكون الميل القلبي صحيحاً وتكون الرغبة القلبية صحيحة حينما توافق العلم والحق، فيأخذ القلب ما توصل إليه العقل من حقائق، فإذا لم يكن في القلب مرض يحرف وجهته ويمنع قبوله للحق؛ فالطبيعي أن تنشأ رغبة صحيحة في القلب بناءاً على معارف العقل الصحيحة، تجد دليل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فمن يرغب في الحق يكون عاقلاً راشداً، ومن يرغب عنه ـ فتكون رغبته في سواه من الباطل ـ فهو سفيه لا يستعمل عقله ولا يهتدي إلى رشده، كما بينت الآية.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في جامعه رقم ٦٨٢، وابن خزيمة في صحيحه ١٨٨٣، وابن حبان في صحيحه رقم ٣٤٣٥، والحاكم في مستدركه رقم ١٥٣٢ وصححه على شرط الشيخين.

إن العقل يستطيع أن يعرف الحق والخير، ويستطيع أن يميزه عن الشر والباطل، فإذا صار القلب يطلب الحق والخير الذي عرفه العقل فذلك هو الصلاح، وذلك هو القلب العاقل ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦].

وبهذه الموافقة القلبية للعقل يتحقق الإنسان بحقيقة الإيمان، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»(١).

والقلب الذي يخالف العقل والحقائق العلمية ويبني عواطفه وميوله وأهواءه على أساس آخر، فقد انحرف وفسد، لذلك جاء الخطاب للكافرين ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] ليردهم إلى العقل وإلى ما يدركه العقل من المعلومات الحقة.

ـ ولما كان الحق المطلق هو عند الله، فهو الأعلم بالحق والخير، فلا بد لمن يرغب في الخير أن يرجع إلى الله في طلب الهداية والحق والخير، فلا تكتفِ أيها الصادق بطلب العلم واتخاذ الأسباب من استعمال العقل والتفهم والدراسة التي تستطيع تحصيلها، بل الجَأْ إلى الله العليم الخبير وتوجه إليه، فهو الذي ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فاطلب من الله الهدايةَ إلى الحقِّ والصوابِ مِن العلمِ والفهم، فقد وعد بالهداية من يسأله إياها ويطلبها، كما جاء في الحديث الصحيح القدسي: «**فاستهدوني أهْدِكم**»(٢).

---

(١) حديث معناه صحيح تشهد له آيات، روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال النووي في الأربعين النووية: إنه صحيح، وقال: رويناه بإسناد صحيح. انظر: جامع العلوم والحكم ص ٣٨٦.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧، عن أبي ذر ﷺ.

فمن توجه بصدق إلى طلب الخير والحق؛ هداه الله، فحبب إليه الخير والحق والإيمان، إذ لا يملك هذه الهداية والتحبيب إلا من بيده القلوب: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧].

ومن كانت عنده رغبة قلبية ترجع إلى اقتناع عقلي؛ فهو مؤهل لتنمية هذه الرغبة، ويمكن أن تؤثر فيه المواعظ وقراءة القرآن أكثر من غيره، فالأساس العظيم الذي يمكن أن يحركه نحو تزكية نفسه ونحو موافقة الحق موجود، فيحتاج إلى تثبيت وتأكيد وتحريك من خلال التذكير والتنبيه.

ـ ومن **أعظم ما يصنع الرغبة** في الطاعة عند المسلم: **معرفته بالجنة،** وصفاتها، لذلك جاء القرآن الكريم معرفاً ومذكراً بالجنة وأوصافها كثيراً، لتشكل الدافع إلى الطاعة، ولتقوِّي التعلقات بالمرغوبات الأخروية الباقية على المرغوبات الدنيوية التي تفنى، وقد جاءت مئات النصوص تربط الطاعات والعبادات بنتائجها وأجورها وحسناتها عند الله في الجنة، ومن هاهنا خصصت جانباً في المنهج الفكري للتعريف بالجنة، وكذلك حرصت على أن أذكر كثيراً من النصوص التي تحثنا على الأعمال مُبَيِّنَةً ما فيها من ثواب وأجر وحسنات.

ـ وحتى لا يتهاون الإنسان بما يرغب به من الشهوات؛ فقد جاءت كثير من النصوص ترهِّب وتُخَوِّف من الشهوات المحرمة والمعاصي، لتُبطل أثر تلك الشهوات والرغبات الوهمية، وأعظم ما يصنع هذه الرهبة: **معرفة الإنسان بالنار،** فجاءت النصوص معرفة بها، وبالأعمال التي توصل إليها، محذرة منها.

الخاطر يصنع الرغبة، والرغبة تصنع الخاطر:

إذا تكلف الإنسان أن يتذكر الآخرة والجنة وأن يتذكر حق الله وأن يتذكر أين مصالحه الحقيقية؛ كل ذلك يوجِد عنده رغبة قوية سليمة، فإذا قويت الرغبة

في الخير والحق عند الإنسان جعلته يذكر الحق ويتذكره بلا تكلف ولا تصنع ولا جهد ولا شُرود.

فعند ذلك يكون قد ارتقى الإنسان مرتقىً عظيماً، فيصير قلبه حاضراً متوجهاً، لا يشتته شيء ولا تشده شهوة ولا باطل، ولا يجذبه غير الله وأمرِه.

وفي المقابل: مَنْ كانت رغبته في الباطل والشهوات جَعَلَتْ خواطره مع شهواته، فإذا أراد أن يتوب وجد خواطره تنساق مع شهواته، فيحتاج إلى مجاهدة ومكابدة وتكلف كبير حتى يعارض خواطره الفاسدة السيئة، ويستحضر ما يخالفها من الحق.

ومن أعظم ما يعين الإنسان عندئذ على تصفية خواطره؛ بُعده عن مواطن الشهوات وأهلها، وما يُذَكِّرُ بها، فإذا اعتزل الشهوات وأهلها وأسبابها، مع اشتغاله بالذكر والطاعة وصحبة الصالحين؛ فإنه يجد تغير القلب بسرعة، ومن هنا كان الاعتكاف والعزلة المؤقتة لها أثرها في إصلاح القلب والإسراع بتطهيره وتصفيته وتحويل خواطره.

كما يعين الإنسان على تقوية الرغبة السليمة؛ قراءته لقصص الأنبياء والصالحين ومعرفة ما يكرمهم الله تعالى به، مما ينهض بهمة الإنسان فيرغب بأن يعمل مثل أعمالهم رغبة في أن ينال بعض ما نالوا وأُعطُوا.

المبحث التاسع

إرادة صحيحة

أول تزكية القلب أن يكون القلب راغباً في الخير والحق، وهذه الرغبة هي التي تُوجِد الإرادة السليمة، فكلما حدَّث الإنسان نفسه بالخير وكلما عمَّق في نفسه حُسْن الخير وجمال الحق، وكلما ذكَّر نفسه بذلك؛ حَمَله ذلك على الإصرار على الخير، فتتولد الإرادة والإصرار على الخير نتيجة كثرة التحديث بالحق والتذكر له، مع الميل إليه والشعور بحُسْنِه وخَيره، ومن أراد شيئاً سليماً فهو صاحب نية سليمة، فإذا تمسك بنيته وأصر عليها فهو صاحب عزيمة، صادقٌ في رغبته في الخير، صَدَّقَ رغبته بأن بنى عليها فأتبعها بإرادة صحيحة ونية عازمة صادقة لا تردد فيها[1].

ولا يزال الإنسان يتذكر الخير والحق ويتذكر مصالحه ومنافعه ـ من خلال الأسباب المعينة على ذلك ـ حتى تقوى الإرادة ويوجد القرار بالسعي لها والعمل على ضوئها، فاقتناعه العقلي بالحق هو **إيمانه**، يوجِد رغبته ونيته الصحيحة المتوافقة مع العقل والعلم والاعتقاد الحق، وهو **إرادته** القلبية، وإرادته القلبية تدفعه إلى **السعي** فيحصل العمل الجسدي، وبهذا تتكامل تزكية الإنسان، وقد ذكر الله تعالى هذه الأمور معاً في قوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، وبالجمع بين هذه الأمور يكون قد أدى حق الله، فكان شاكراً لفضل الله وإحسانه وعطائه.

والإرادة القلبيـة المطلوبـة ترافـق كل شيء في حياة الإنسـان، فكل عمل

---

(١) ثم يصدِّق نيته الصادقة العازمة بعمله وِفْقَها، فلا يترك العمل إلا إذا حيل بينه وبينه لأمر قاهر.

إما أن يكون بإرادة باطلة أو بإرادة خير وحق، فينبغي أن لا يوجد عمل أو قول؛ إلا ومعه إرادة قلبية في أن يكون موافقاً للحق، وإلا أن يكون متوجهاً إلى الله بذلك العمل، فيصير حاله كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي [(1)] وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فالله هو المراد المقصود بكل عمل وقول وفعل وعبادة وفي كل ما يكون في الحياة، وهذا وصف المؤمنين بحق الذين أطاعوا الله في كل وقت، وجعلوا قلوبهم مريدة رضا الله ووجهه وجنته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ومما سبق تدرك أن الإرادة القلبية تكون في أمرين: إرادة فعل الخير والحق، ثم قصد وجه الله بهذا الخير والحق، وعدم إرادة غيره أو قصد إرضاء غيره في أي فعل.

فصاحب هذه الإرادة يكون كل تَوَجُّهِه هجرة إلى الله ورسوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»[(2)]، ويكون بذلك مقبلاً على الله إقبالاً قوياً كأنما هو هاربٌ فارٌّ من غيره: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ﴿وَقَالَ [(3)]: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

واعلم أن الذي تحقق بالإرادة القلبية الصحيحة، فأراد أن تكون حياته وأعماله كلُّها لله وموافقة للحق؛ فإنه سيكون في كل عمل يعمله حاضر النية لله وموافقاً به شرع الله، وتكون نيته في كل عمل تلقائية جاهزة لا يحتاج إلى

(١) نسكي: أي عبادتي أو مناسك حجي.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١ ومسلم رقم ١٩٠٧، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

تكلف فيها، فمن تحقق بالإرادة القلبية الصحيحة لا يجد صعوبة في استحضار الإخلاص لله في كل عمل، كما لا يجد صعوبة في الاستقامة على أمر الله.

فالإرادة نية عامة صادقة شاملة لكل الأقوال والأعمال القلبية والجسدية، تصير بها نية كل عمل بمفرده خالصة صادقة.

واعلم أن أصل التزكية نابع من باطن الإنسان من عقله وقلبه، فأي تزكية في ظاهر الأمر إذا لم تكن نابعة من رغبة الإنسان الباطنية في الصلاح والخير والحق ونبذ الباطل والشر والسوء؛ فليست تزكية، وإنما هي صورةُ تزكيةٍ لا تنفع صاحبها، فمن كانت أعماله موافقة للشرع أو كانت أخلاقه في الظاهر جميلة؛ لكنه لم يكن يريد بها الله، فهي لا تنفعه عند الله، ولا تنجيه في الآخرة.

وإذا ظن الإنسان أن عنده حالاً قلبياً وعقلياً يُرَغِّبُه بالحق والخير، ويدفعه إليهما؛ ولم تظهر ثمرة ذلك على ظاهر الإنسان وعمله وأقواله؛ فذلك دليل على عدم الصدق في باطنه، فلا يعتبر من أهل التزكية إلا بقدر الصدق في تلك النية والرغبة التي في داخله وباطنه، ومن منعه مانع قاهر من العمل الظاهر لكنه كان صادقاً في باطنه فهو من أهل التزكية، ولا يضره عندئذ عدم ظهور الفعل على جوارحه.

ـ إذا صح ميل الإنسان وهواه واتجاهه ونيته وما يريد، فكان لا يريد إلا الخير والصلاح والبر والهداية واللطف والفضيلة والسكينة، والانسجام مع وظيفته التي خلق لها، والانسجام مع الكون الذي سُخِّر له، فذلك القلب الصالح السليم، وإذا وجد هذا القلب اتجهت الجوارح بدءاً باللسان؛ اتجهت إلى الخير والطاعة والصلاح والمصلحة.

ثم ما تعمله الجوارح من خير يعود على القلب بالحياة والنور ومزيد التقوى، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤]﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحديد:٢٨]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وما تعمله الجوارح من شر يعود على القلب بالظلمة والفساد والقسوة، قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤] تحذير من الله تعالى أنه قد يحول بينك وبين إرادتك، ولا يكون ذلك ظلماً، وإنما هو بسبب أعمالك وذنوبك، **فاحذر من الذنوب فإنها تعود على الإرادة بالنقض والضعف.**

المبحث العاشر

مجاهدة النفس في شهواتها ومخالفة الهوى

ـ إنه مع وجود الرغبة القلبية في الحق والخير يجد الإنسان اندفاعاً تلقائياً نحو الحق والخير والعمل بهما، فلا يحتاج أن يجهد نفسه بل يجد طمأنينة وانقياداً نحو الخير وارتياحاً واستسلاماً، ففي الوضع الطبيعي السليم للقلب لا حاجة إلى إجهاد النفس وحملها على العمل لوجود الرغبة الدافعة.

وأما في حالة وجود مرض في القلب، أو وجود ميل إلى الباطل ورغبة فيه، على الرغم من الاقتناع العقلي بالحق؛ فإن الإنسان لا بد أن يواجه الرغبة الباطلة في قلبه، ولا بد أن يواجه الموانع القلبية بِمُضادَّتِها ومُجاهدَتِها حتى يَحْمِل نفسه على موافقة العقل والحق، لا على موافقة هوى النفس ورغبتها الباطلة.

ومن هاهنا وجبت المجاهدة للنفس حتى يصل الإنسان إلى الاستقامة والهداية التامة.

ـ إنه إذا وجدت الرغبة الصحيحة والميلُ نحو الحق والخيرِ والمصلحة الحقيقية والمنفعة؛ كانت الإرادة صحيحة وسليمة، وذلك إذا لم توجد أيُّ رغبة أخرى في أي شيء من الباطل والشر والشهوة والمفسدة، أما إذا وجدت ولو رغبة واحدة أو شهوة واحدة أو ميل أو هوىً في النفس؛ فإنه يصير في القلب تنازع بين الرغبات وتصارعٌ، فيتقلب القلب بين الرغبتين، فتارة توجد إرادة موافقة لهذه الرغبة، وتارة توجد إرادة موافقة للرغبة الأخرى، بحسب المرجحات التي تمدُّ إحدى الرغبتين أو تُذَكِّر بإحداهما، وقد ذكر النبي ﷺ القلوب فذكر منها القلب الذي تتنازعه الرغبات والميول فقال: «وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمَثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب،

ومثل النفاق فيه كمثل القُرحةِ يمدها القيح والدمُ، فأي المدتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه»(١).

فيحتاج طالب التزكية إذا كان على هذا الحال أن يقوي أسباب الرغبات الصحيحة ويقطع أسباب الرغبات السيئة، فإذا غلبت على القلب الرغبة بالباطل والشر والشهوة والمفسدة؛ فيجب أن يقابلها بالمجاهدة، ويقطع هذه الرغبة حتى لا تتحول إلى إرادة وعمل منكر.

وقد نبه النبي ﷺ إلى مصارعة الإنسان لنفسه ومجاهدته لجانب الباطل فيها إذ قال: «والمجاهد من جاهد نفسه في الله»(٢).

ـ ورغبة الإنسان في أن يجاهد الرغبة الفاسدة تجعل منه متوجهاً إلى الحق راغباً فيه راغباً عن الباطل، فتنمو هذه الرغبة فتكون مانعة للرغبة الباطلة، فيصل بذلك الإنسان إلى الهداية، وهي الدلالة إلى الحق، إذ لا تبقى للقلب رغبة إلا في حق وخير ومصلحة حقيقية، وقد نبه الله تعالى إلى أن المجاهدة تؤدي إلى الهداية، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والآية تدل على أن المجاهدة توصل إلى الهداية، ومعنى ذلك أن المخالفة والمعارضة للحق ضلال وانحراف في النفس، فإذا جاهد الإنسان نفسه فقد

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ١١١٤٥، ونحوه عند ابن أبي شيبة رقم ٣٧٣٩٥، والحديث قد صح موقوفاً عن حذيفة ﷺ، ومثله لا يقال بالرأي، فالظن أنه سمعه من النبي ﷺ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٦٢١ وقال: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان رقم ٤٨٦٢ والحاكم رقم ٢٤ من حديث أطول منه وفيه: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، وفي رواية لابن حبان رقم ٤٦٢٤: «جاهد نفسه لله عز وجل» وفي رواية له رقم ٤٧٠٦: «من جاهد نفسه في الله»، ومثلهما عند أحمد في المسند رقم ٢٣٩٩٧.

أثبت أنه لا يريد ذلك الضلال، فينقله الله بسبب ذلك إلى استقامة حالته النفسية، وهذه الآية تدل على أن الله تكفل بهذه الهداية.

والمجاهدة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي تَبَعٌ للطاعات، فلا يصح أن يُجهد المسلم نفسَه بما يؤذي النفس ويتعبها إذا لم يكن مما تعبدنا الله تعالى به، فلو أنه أدخل شوكة في يده فلا أجر له بذلك، بل يأثم، لكنه لو دخلت الشوكة وهو في طريقه إلى الصلاة بغير تقصد منه فيزداد أجره بسببها وبتحمله لها، ولو أنه كسر رجله فإنه يأثم بذلك، لكنه لو كُسرت رجله في الجهاد في سبيل الله فإنه يزداد أجره.

ـ وإذا لم يستطع الإنسان أن يجاهد نفسه في إقامة طاعة تأباها نفسه، أو في ترك معصية تهواها وترغب بها نفسه؛ فعليه أن يجاهد نفسه في أمور أخرى تُقَوِّي عنده الصبر والتحمل والمجاهدة، كأن يكثر من الصيام، أو يكثر من الذكر، أو يتوضأ كلما ذهب وضوءُه، أو أن يصبر نفسه في مجالس الصالحين والعلماء، أو يحرص على ترك فضول الكلام الذي لا نفع منه، وفضول الطعام الزائد عن حاجته، وغير ذلك، فإذا فعل ذلك قويت المجاهدة في نفسه بشكل عام، فيجد نفسه قوياً في مجاهدة ما لم يكن قادراً على مجاهدته، فيقدر على ترك معصيته أو فعل طاعته.

إن اتباع الإنسان لما يهواه ويميل إليه مما يخالف شرع الله؛ يفتح باب الضلال والانحراف، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فوجبت مخالفة النفس فيما تخالف به شرع الله، فذلك طريق الجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ـ وكلما كانت طاعة الإنسان فيها مجاهدة ومشقة أكبر؛ كان أجره أكبر، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وهذا الأجر الذي يأتي من المشقة والمجاهدة يرتقي بالإنسان بإذن الله حتى يكون على حال أحسن.

ـ إن الإيمان بوجود الله وألوهيته وربوبيته وحُكْمِه وقدرته وصفاته والإيمان بالرسول والإيمان بالقرآن والإيمان بالآخرة، والإيمان بكل حقيقة؛ يُوَلِّدُ وينشئ صفاتٍ ورغبات وإرادات في القلب، وإذا لم تنشأ تلك الصفات والإرادات؛ فيجب على الإنسان أن يتكلفها ويحمل نفسه عليها ويجاهدها حتى تستقيم على الحق، ويُرَغِّبُ نفسه بها ويَسْتَحْلِيْها، ويتذكر الحقائق التي ترسخها في القلب والنفس.

فيتكلف الإخلاص حتى يصير سجية فيه، ويتزهد حتى يصير الزهد سمة فيه، ويتصبر حتى يصير الصبر صفة فيه، ويتوكل حتى يصير التوكل على الله عادة ملازمة فيه، ويتخوف حتى يصير الخوف من الله مسيطراً عليه واقياً له من الشرور، ويرجو حتى يصير الرجاء من الله ديدنه الدافعُ إلى توبته الباعثُ له إلى الخير، ويُحِبُّ حتى يصير محباً مشتاقاً مولهاً متعلقاً، ويتورع حتى يصير ورعاً، ويَكْرُمُ حتى يصير كريماً، ويَصْدُق حتى يصير صِدِّيقاً، ويَعِفُّ حتى يصير عفيفاً، وهكذا في سائر المقامات والصفات والأخلاق القلبية.

فإذا صارت النفس تهوى الحق وتحب الطاعة التي أمر الله بها؛ فذلك هو الاطمئنان إلى أمر الله، وذلك من سلامة القلب، ولا يحتاج إلى مجاهدة نفسه عند ذلك، فإنما يجاهدها ويخالفها إذا خالفت أمر الله، فإذا

وافقت أمر الله صارت مُعِيْنَة له على الحق والخير والطاعة، فلا يجوز أن يخالفها في الحق.

ـ ومن واجب كل مسلم أن يعرف الصفات القلبية السليمة المطلوبة، ليحرص عليها ويعمل على إيجادها، وأن يعرف الصفات القلبية المريضة، ليحرص على علاجها والتخلص منها والتزكية منها إن وجدت عنده، وليحذر منها إن لم تكن عنده، لذلك نذكرها تعداداً[1]، ثم نتكلم عن أهمها في الفصل الثاني.

(١) من كتاب فصول في الإمرة والأمير، للوالد سعيد حوى، نقلًا عن كتاب بدائع السلك وطبائع الملك لابن الأزرق، بتصرف يسير.

المبحث الحادي عشر

أهم تكاليف القلوب تحليا و تخليا

ما طلب الله التحلي به: الإيمان، العقل، العلم، التقوى، التوبة، التواضع، التوكل، الخوف، الخشية، الزهد، العفة، الشكر، الصبر، الحلم، كظم الغيظ، العفو، الرفق، اللين، السخاء والكرم، الحزم، الحكمة، المداراة، الشجاعة، الوفاء بالوعد والعهد، التفكر، المراقبة، المحاسبة، الاتباع، التثبت في الأمور، الفقر إلى الله، الغيرة، التبتل، الخشوع، الرضا عن الله وأحكامه، التفويض، الخشوع، الحياء، الإنابة، التورّع، الاستقامة، حسن الخلق، القناعة، الاعتصام بالله، الاتعاظ، المسارعة إلى الخيرات، الإحسان، محاربة الشيطان، اليقين، صلة الرحم، بر الوالدين، قصر الأمل، حسن الظن بالله، الحزن على ما فات من الطاعة، الفرح بفضل الله وبرحمته، محبة الطاعة والإيمان، كراهة الكفر والفسوق والعصيان، الحب لله ولرسوله ﷺ، الحب في الله، البغض في الله، التيقظ، الشوق إلى لقاء الله تعالى، أن يحب للمؤمنين كما يحب لنفسه، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه، مجاهدة النفس، ذكر الموت وما بعده، السرور بطاعة الله، الاغتمام بمعصية الله، تفريغ القلب عن كل ما سوى الله، الصدق، الإخلاص، النية الصالحة، الرأفة، الرحمة، الشفقة، المعرفة بما أمر به وما نهي عنه، العدل، الأخذ بالعفو من الأخلاق، الإعراض عن الجاهل، الدفع بالتي هي أحسن، الاستجابة لله، الصفح، خفض الجناح للمؤمنين، الإعراض عن اللغو، ابتغاء الآخرة، التزكية، اتباع الأحسن، الإشفاق، تعظيم الله تعالى، الرهبة، الرغبة، الرجوع إلى الله ورسوله عند التنازع، الإخبات، التسليم لأمر الله تعالى، الإيثار.

ما طلب الله التخلي منه: الكفر، الشرك، النفاق، الرياء، اتباع الهوى، حب الدنيا، حب الشهوات، البخل، التبذير، الجبن، الكبر، العجب، الغضب، الحقد، الحسد، حب الجاه المضرّ، حب المال، حب المدح، كراهة الذم، كراهة النصيحة، الطمع، الغرور، الغفلة، كفر النعمة، اتباع الظنون، اتباع خطوات الشيطان، الحمية لغير الله، مفارقة الجماعة، الفرح بالدنيا، الركون إليها، الهلع، الجزع، حب الظلم، الإعراض عن الذكر، طاعة من اتبع هواه، التكلف، اللهو، التنطع، الإصرار على المعصية، الأمن من مكر الله، اليأس من روح الله، القنوط من رحمة الله، الذبح لغير الله، التكذيب بالقدر، الابتداع، اتباع المتشابه، الغلظة، الفظاظة، نسيان الذنب، اتخاذ الكافر ولياً، سوء الخلق، قطع الرحم، عقوق الوالدين، الصد عن سبيل الله، احتقار المسلم، القسوة، اتباع غير سبيل المؤمنين، التحايل على أحكام الله، خوف الفقر، الجفاء، الشماتة بالمسلم، حب القيام لقدومه، السخط، الطيش، إرضاء الناس بسخط الله، الرضا بالمحقرات، الغفلة عن العيب، تفضيل الغني، الاهتمام بالدنيا، حب العلو، التطير، حب الأشرار، التنافس، الأنس بغير الله، طول الأمل، العبادة على حرف، المداهنة، الجور، الإسراف، الإقتار، الرضا بالدنيا من الآخرة، التفرق في الأهواء شيعاً، البغي، الطغيان، الغدر، نقض العهد، الإجرام، العدوان، الاستهزاء بآيات الله، العجلة، مدح النفس، الشح، السهو عن الصلاة، منع المرافق، اشتراء الثمن بآيات الله، تلبيس الحق بالباطل، الإلقاء باليد إلى التهلكة، حب الحمد بما لم يفعل، الترفع عن حكم الله، التعاون على الإثم والعدوان، إضمار غش الرعية، المكر، قلة الرحمة لعباد الله، الخروج عن الطاعة، التسلط على عباد الله، صحبة الجاهل، إعانة المبطل، الرضا بحكم الطاغوت، الوهن للأعداء، مشاقة الله ورسوله ﷺ، عدم قبول العذر، كراهة الموت، ترك العدل بين الزوجات، الاتكال على غير الله، التسويف بالتوبة.

ـ وسوف نبين فيما يأتي أهم الصفات القلبية التي يجب أن تكون عند المبتدئ، وكيف يحصلها، مع الإشارة إلى أهم الأمراض القلبية التي يجب أن يتطهر منها، وكيف يتخلص منها.

الفصل الثاني
الصفات والأحوال القلبية السليمة

وكيف نوجدها، وكيف نعالج ما يقابلها من أمراض

وفيه خمسة عشر مبحثاً:

- **المبحث الأول:** الإيمان وضده الكفر والشرك والنفاق.
- **المبحث الثاني:** اليقظة والإنابة وضدها الغفلة والإعراض.
- **المبحث الثالث:** التوبة وضدها الرضا بالذنب والمعصية والإصرار عليه.
- **المبحث الرابع:** الزهد وضده الرغبة في الدنيا وشهواتِها وزينتها.
- **المبحث الخامس:** حب الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين وضده الكره والبغض.
- **المبحث السادس:** الخوف وضده: الأمن من مكر الله وغضبه.
- **المبحث السابع:** الرجاء وضده اليأس من رحمة الله.
- **المبحث الثامن:** الشكر وضده الجحود. =

=

- **المبحث التاسع**: الصبر وضده الكسل والجزع.
- **المبحث العاشر**: التسليم لله والرضا وضده: الاعتراض والسخط.
- **المبحث الحادي عشر**: الاستقامة.
- **المبحث الثاني عشر**: التوكل وضده الاعتماد على الأسباب.
- **المبحث الثالث عشر**: الإخلاص وضده الرياء.
- **المبحث الرابع عشر**: العبودية لله والذلة والافتقار والتواضع.
- **المبحث الخامس عشر**: المراقبة.

تمهيد

إن ما يجب أن يتحقق به المبتدئ قلبياً من تزكية النفس هو أمران:

الأول: التحقق بفرائض القلوب في الجملة.

والثاني: التخلص من كبائر القلوب ومعاصيها، أما دقائق ذلك وتفصيلاته، فغالباً ما يتحقق بها يجب أن يتحقق به ويتخلص مما يجب أن يتخلص منه على سبيل الاستقصاء والتدقيق ـ مما يزيد على حدِّ الفرض والمُحرَّم ـ في مرحلة المتوسط، كما سنبينه إن شاء الله.

وفيما يأتي نبين كل حال قلبي أو صفة قلبية يجب التحقق بها[1]، وما يضادها من صفات يجب التخلص منها، مع ذِكر الحقائق التي تدعو إلى تلك الصفات.

(١) تنبيه: من صفات القلب: الأخلاق كالصدق والكرم والعفة، وهي أمور قلبية تظهر آثارها على الجوارح في المعاملات، ولما كان المقصود الأول من الأحوال القلبية: هو علاقة العبد بربه، فقد أفردناها هنا، أما الأخلاق فالمقصود الأول منها: حصول آثارها في التعامل مع المخلوق لذلك جعلناها بعد التزكية العملية الجسدية، وجعلناها موضوعاً منفصلاً تحت باب التزكية الأخلاقية، ولا شك أن الأحوال القلبية تثمر أيضاً عبادات وأذكاراً وأدعية ومعاملات حسنة.

المبحث الأول

الإيمان بالله
وضده الكفر والشرك والنفاق

إن أهم صفة في القلب السليم هي صفة الإيمان، وإذا وجدت صفة الإيمان في القلب كان أهلاً لأنه يحمل الصفات السليمة الأخرى التي بها يتزكى، كالإخلاص لله، والرضا عن الله وأحكامه وقدره، والتواضع له سبحانه، والتوكل عليه، والرجاء منه والتعظيم له والخوف من عقابه. وغير ذلك.

وإذا لم توجد صفة الإيمان فلا يمكن أن توجد أي صفة سليمة في القلب، لأنها ستكون لغير الله، فسيكون الرضا عن المخلوقات، والتوكل على الأسباب، والخوف من مصائب الدنيا، وهكذا.

لذلك كان الخطاب الأهم والمقدَّم للناس هو طلب الإيمان بالله وبصفاته وكتابه والإيمان بكتابه ورسوله والملائكة والآخرة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وإذا أدرك الإنسان بعقله حقيقة وجود الله وحقيقة صدق النبي المرسل من عند الله، لكنه لم يُسلِّم قلبه بذلك، ولم يذعن ولم يخضع، ولم يعترف بهذه الحقائق وأمثالها ولم يصدِّق بها؛ فلا قيمة لمعرفته العقلية، وكأنه لا يعرفها، لذلك وصف الله من عرف الحق ثم كذب به وصفه بأنه كافر، في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ولا بد أن يوطن كل إنسان قلبه على تقبل الحق والإذعان له، حتى ولو كان على خلاف مصالحه الخاصة وهواه، بل واجبه أن يجعل هواه موافقاً للحق حيثما كان، فيكون محباً للحق ومصدقاً به ومُقِرّاً، ووجود هذا الأمر في قلب الإنسان هو الذي يجعله يؤمن بالحق إذا عرفه، ومن جعل ميله إلى خلاف الحق فقد حكم على نفسه أن يكون ضالاً منحرفاً زائغاً، ويكون قد فقد بذلك أهم صفات القلب السليم.

ولا يكون الإيمان إيماناً إذا وجد معه شك فلا بد من التصديق الجازم بما عَرَفْتَ من الحق، فعندئذ تكون مؤمناً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والإيمان محله الأهم هو القلب، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فلا يكفي أن يُقِرَّ الإنسان بالحق على لسانه، بل لا بد أن يكون الإقرار والتصديق قلبياً، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فبين الله تعالى أن إيمان اللسان دون القلب نفاق، وأنه حالة تكون أقرب إلى الكفر منها إلى الإيمان.

ومن آمن بقلبه فواجبه أن يصدق ذلك بلسانه بإعلان الشهادتين والانتساب إلى الإسلام، ثم يصدق بجوارحه من خلال طاعة أمر الله وعمله بما يقتضيه الإيمان القلبي، لذلك جاءت الآيات تخاطب المؤمنين وتأمرهم بالأعمال الصالحة كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]،

وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، والآيات غير ذلك كثيرة جداً.

ولا يصح إيمان الإنسان حتى يكفر بغير الله ممن يجعل من نفسه إلهاً أو يجعله الناس إلهاً، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ـ من الطبيعي لمن تحقق بالإيمان أن يكون نقياً من الكفر والنفاق وأوصاف أهلهما، إذ لا يتحقق الإيمان القلبي إلا مع الخلو من الصفات القلبية المانعة للإيمان، وقد بيَّنا من قبل ما هي الأمراض القلبية التي تؤدي إلى الكفر، وقد قدمنا ذكرها لأن التزكية كلها تتوقف على الخلو منها.

وإذا حرص الإنسان على طلب الحق وطلب معرفته، والتسليم به والاعتراف به إذا عرفه؛ فهو في طريق الإيمان، بعيد عن الكفر والنفاق.

ـ ومن تحقق بالإيمان والتوحيد فإن مسائل الكفر تكون واضحة عنده، ويسهل عليه الحذر منها، وعدم الوقوع فيها.

الكفر والشرك

لقد حذرنا الله تعالى من الكفر والشرك، وذكر لنا أهم أسباب الكفر التي بها كفر من كفر، فمن ذلك:

يكذِّبون بالآيات ويعرضون عن فهمها والخضوع لها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قد يُقِرُّون ببعض الحق لكنهم يكفرون وينكرون بعضاً آخر، فلا ينفعهم ما آمنوا به مع وجود كفرهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

يجعلون مع الله شريكاً في ألوهيته أو ربوبيته أو صفاته أو أفعاله، قال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟

عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

يسوُّون بين الخالق العظيم القادر وبين المخلوق الضعيف العاجز، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

يعبدون غير الله، وغير الله عاجز ضعيف فقير فكيف يكون إلهاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومن الكافرين من يعبد غير الله ويدعي أن معبودَه وسيلةٌ تقرِّبه إلى الله، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

ينكرون بعض صفات الله وأسماءه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

يرون لأنفسهم أو للخَلْق حق التشريع مع الله أو خلاف أمر الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣-١٠٤].

يدعون غير الله ويطلبون حاجاتهم ممن لا يملك قضاءها، قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وهم حينما يتعلقون بغير الله ويرجون نصرة غير الله إنما يتعلقون بأوهام لا تنفعهم ولا تضرهم، فالأصنام والشمس والشجر والطواغيت والمعبودات من دون الله والناس والصالحون والأنبياء والرسل لا يقدرون على نفع أنفسهم إلا بإذن الله ومشيئته وقدرته ومدده، فكيف ينفعون غيرهم بغير مشيئة الله وإرادته وقدرته ومدده: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[العنكبوت: ٤١-٤٢]. وقد أَمَرَنا الله بولاية الرسل والأنبياء والصالحين ولاية محبة ونصرة وتعاون على الحق، لا أن نستنصر بهم، ولا أن ندعوَهم، ولا أن نستغيث بهم، ولا أن نتخذهم من دون الله آلهة وأنداداً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤-٦].

الكافرون يعادون كتاب الله ورسله ويكذبون بهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

لا يؤمنون بالآخرة، قال تعالى ذاكراً قول بعض الكافرين: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠].

ولا يؤمنون بأن الله هو المحيي المميت: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

يرددون الباطل من غير أن يفكروا بما يقولون، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

الكافرون يَشُكُّون في كلام الله وأفعاله وحكمته، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

يستهزؤون من الحق والقرآن، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

يُبعِدون الناس عن الإيمان بالله وشريعته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ١-٣].

يقدمون الكافر على المؤمن، ويحبون أهل الكفر ويُقِرُّونهم، ويكرهون أهل الإيمان، قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ (١) وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥١-٥٢].

---

(١) (الجبت والطاغوت): ما عبد من دون الله، ويدخل في ذلك: الأصنام التي تعبد، والحكام الذين يأمرون بالباطل ويجعلون من أنفسهم مشرعين مكان الله، ويدخل في ذلك السحر والكهانة التي يُصرَفون بها عن الحق إلى الباطل والأذى والوهم والدجل.

يدافعون عن الباطل وأهله، قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

النفاق

وقد حذرنا الله تعالى من النفاق وصفات أهله حتى نطهر قلوبنا منها، فأخبرنا أن النفاق إظهار لكلمة الإيمان مع كونه ليس في القلب فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، يتظاهرون بالإيمان لكنهم لا يرجعون إلى أحكام الله، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، فإذا فضحهم الله تعللوا بأنهم كانوا يريدون المصلحة والخير، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

يناصرون الكافرين ويحبونهم ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]، لذلك كان مصيرهم معاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

من أوصافهم التأخر عن الصلاة والعمل رياءاً للناس والغفلة عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ينظرون إلى المؤمنين نظرة احتقار ويظنونهم مخدوعين: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

يكذبون ويَتَرَبَّصُون السوءَ بالمؤمنين ويطمعون بالدنيا، قال تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [التوبة: ٧٤].

يُروِّجون الباطل والمنكرات يبخلون في الحق: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقد بينا من قبل أن إرادة الحق ترجع إلى الرغبة السليمة، والرغبة السليمة ترجع إلى الخاطر السليم وتذكره، فحينما بين الله في هذه الآية أنه يعاقب المنافقين بالنسيان لربهم؛ فذلك دليل على أنه لا ينتج عندهم رغبة سليمة ولا إرادة حق.

فليحذر كل مسلم من أوصاف المنافقين أن تكون فيه، فيدخل في النفاق وهو لا يدري.

وقد أُمر النبي ﷺ أن يجاهد المنافقين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣]، وواجب المسلمين تبعاً لما أُمِر به النبي ﷺ أن يجاهدوهم، وأن يحذروا منهم، وأن يفوتوا عليهم مخططاتهم وإفسادهم.

وقد حذرنا النبي ﷺ من أوصاف هي من أوصاف المنافقين نعرفهم بها، ونكتشف أنفسنا بها إذا اقتربنا من النفاق، فقال ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّث كَذب، وإذا وَعدَ أخلَف، وإذا اؤْتُمِن خَانَ»(١)، وزاد مسلم: «وإنْ صَامَ وصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مسلِمٌ».

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٣ ومسلم رقم ٥٩، عن أبي هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: «أَرْبع مِنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً. ومنْ كَانَتْ فِيه خَصلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فِيهِ خَصْلَة مِن النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذا اؤُتُمِنَ خَان، وإذَا حدَّثَ كذَبَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَر، وَإذا خَاصَم فَجَرَ»(١).

وكُرْهُ الجهادِ والغفلةُ عنه من علامات المنافقين: «مَنْ ماتَ ولَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَه بِغَزوٍ، ماتَ عَلى شُعْبَةٍ مَنَ النِّفَاقِ»(٢).

وقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ بعد أن بيَّن أن صلاة الجماعة من سُنن الهدى: «ولَقَد رَأَيْتُنَا وما يَتَخَلَّف عَنها إلاَّ منافق مَعْلُومُ النِّفَاق، وَلَقَدَ كانَ الرَّجُل يُؤتىَ بِهِ يُهادَي بيْنَ الرَّجُلَيْنِ(٣) حَتَّى يُقَامَ في الصَّفِّ»(٤).

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٤ ومسلم نحوه رقم ٥٨، عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلمٌ رقم ١٩١٠عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أي من المؤمنين، لشدة حرصهم على الجماعة، يأتون ولو كانوا ضعفاء يحتاجون إلى من يعينهم ويسندهم.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٦٥٤.

المبحث الثاني

اليقظة والإنابة إلى الله
وضدها الغفلة والإعراض

إذا آمن الإنسان بالله وصفاته وعرف حقه عليه وعرف أن له هدفاً في الحياة ومقصداً خُلِقَ له؛ فإنه لا يمكن أن يتجاهل ذلك، ولا يمكن أن يعيش حياته وهو يتجاهل الطريق إلى هدفه وإقامة حق خالقه، ولا يمكن أن يعيش وكأن الإله الرب غير موجود، بل حياته كلها ينبغي أن يعيشها بحيث يحقق حق خالقه وربه وإلهه.

فإذا فهم الإنسان ذلك بدأ يتوجه نحو القيام بحق مولاه وبدأ يحرص على موافقة أمره وإرضائه، وهذا التوجه إلى ذلك هو يقظة الإنسان وانتباهه إلى ما هو مطلوب منه وإلى ما فيه خيره ومصلحته.

وهذه اليقظة يمكن أن نسميها إنابة إلى الله، ويمكن أن نسميها استسلاماً له، ويمكن أن نسميها أَوْبَة ورجوعاً إلى الله.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقد سَمَّى الله الإسلام إسلاماً لأنه استسلام الإنسان إلى ربه، قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وكلما قويت اليقظة كان صدق التوجه إلى الله وإلى طاعته وإلى السير نحو تزكية النفس أقوى وأثبت وأدوم بإذن الله، والله تعالى بشر أولئك المنيبين

بالمغفرة والهداية، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى مبشراً المنيبين ومبيناً أهم صفة من صفاتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، فشأن المنيبين إلى الله الصادقين أنهم يبحثون عن أحسن القول، وإذا سمعوا أقوالاً أخذوا بأعلاها وأحسنها وأقربها إلى الله تعالى وأرضاها له.

ـ أهم أسباب اليقظة:

لقد جعل الله تعالى من الأحداث والعقوبات ما يوقظ الإنسان وينبهه ويجعله يرجع إلى ربه وينيب، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

كما جعل الله الحقائق والآيات الدالة عليها ـ في القرآن وفي الكون ـ سبيلاً إلى الرجوع والإنابة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

ـ وعلامة صدق الرجوع إلى الله برجوع الإنسان إلى أحكام الله، ورغبته

في الاحتكام إليها، وحرصه على معرفتها والعمل بها، والاعتماد على الله تعالى في تحقيقها.

ـ واليقظة والغفلة على درجات، فقد يكون الإنسان قد انتبه إلى بعض ما ينبغي أن ينتبه إليه، لكنه ما زال غافلاً غير مفكر في كثير مما يجب أن ينتبه إليه ويستيقظ له، فيحصل عنده انحراف في جوانب بقدر ذلك، كما يكون عنده استقامة بقدر ما انتبه واستيقظ.

فلسنا نعني بالغافل ذلك الكافر والفاسق شديد الفسق فحسب، بل قد يكون الإنسان مسلماً لكنه غافل عن بعض أمره فيحتاج إلى يقظة أو إيقاظ وتنبيه، وقد يكون صالحاً لكنه غافل عن حالة هي أصلح مما هو فيه، فيحتاج إلى يقظة ليزداد خيراً، حتى لا يقف عند حدٍّ أدنى.

فقد يَتَّصِفُ المسلمُ العاميُّ أو الصالحُ بالغفلة ـ على الرغم من أنه قد يكون في أوصافه أقرب إلى حال المبتدئين أو المتوسطين أو المتحققين في تزكية النفس ـ لكنه يجوز أن يكون مُتَّصِفاً بالغفلة من جانب ما، والذي جَوَّزَ وصفه بالغفلة أن هذه الغفلة ما وجدت إلا بسبب نقص في وصف من أوصاف اليقظة بنقص شيء من المقدمات الفكرية والعملية، حيث يكون غافلاً عن بعض المعتقدات التي يجب الانتباه إليها، أو يكون مقصراً في بعض الأعمال التي هي من أعمال أهل اليقظة أو المبتدئين في تزكية النفس.

ومما يدل على أن اليقظة درجات أن الأنبياء وهم أعظم الناس يقظة، ومع ذلك نجد أن الله تعالى وصف نبيه داود بأنه أناب في قوله سبحانه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

[ص: ٢٤]، فرغم ما في درجة النبوة من يقظة وإنابة عظيمة؛ ذكر الله أن نبيه داود أناب، فإنابته هنا في أمر كان قد خفي عنه أو ظنَّ أنه أخطأ فيه.

ـ وقد يكون المسلم غافلاً على الرغم من صلاحٍ في ظاهر أمره، وذلك إذا لم يتوجه نحو الصلاح بسبب يقظة في نفسه، وإنما كان عاملاً بالصلاح بسبب تقليد لبيئته ومسايرة لأهله ومن حوله، لذلك نجد كثيراً من هذه النماذج إذا تغيرت البيئة تغيروا وانحرفوا، لأنهم لم يستيقظوا أصلاً رغم أنهم عملوا بظاهر أعمال أهل التزكية في فترة ما، لذلك كان توجه النفس هو الأهم والأول في تزكية النفس، قبل النظر إلى الأعمال التي تظهر على الجسم، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسادِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة ﷺ، وفي رواية أخرى له: « إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعمالِكُمْ ».

ضد اليقظة: الغفلة

ـ وما لم ينتبه الإنسان إلى ربه وحق ربه؛ يبقى سادراً في غفلته مشغولاً عن ربه، ملتهياً عن فرائض الله، يقع في المحرمات ولا يبالي.

ـ ولما كان الغافل غير ملتفت إلى خالقه ولا إلى غاية خلقه ولا إلى نهاية حياته؛ فإنه لا يبحث عن مصلحة حقيقية ولا عن هدف، ولا يبحث عن طريق تحقيق ذلك، الذي هو في طاعة الخالق وأوامره، فيبني حياته على شهواته وظنونه ويتبع هواه، ولو أدى به ذلك إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا (1)﴾ [الكهف: ٢٨].

فهل يستوي الغافل مع المستيقظ الذي رجع إلى ربه وآب وتاب: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[هود: ٢٤].

فمن لم يرجع إلى الله فسيرجع إلى هواه وأوهامه وشهواته أو إلى الشيطان أو إلى الطغاة الذي يدَّعون لأنفسهم حق التشريع من دون الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، فسبيل الله والهوى لا يجتمعان.

ومن ضيع أمر الله وغفل عنه وصل إلى الشهوات: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) الفرُط: المتروك أو المجاوز للحد.

والله تعالى ذكر من صفات المنيبين أنهم اجتنبوا اتباع الطواغيت، قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧]، فمن لم يرجع إلى الله رجع إلى غيره، فجعل من غيره إلهاً مطاعاً في خلاف أمر الله، ومن رضي لنفسه أن يشرِّع خلاف أمر الله فهو الطاغوت، والطاغوت هو كل من عبد من دون الله، وسمي طاغوتاً لأنه بالغ في الطغيان والاعتداء على حق الله(١).

ـ والغافل يستولي عليه الشيطان بوساوسه وتوهيماته، فيستدرجه إلى مزيد من الغفلة والباطل والشر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

ـ والحد الأدنى من اليقظة المطلوبة هو أن يوجد عند الإنسان من الحقائق والمعلومات ما يوجب انتباهه إلى فرائضه واهتمامِه بها، وحذرَه من محرمات الله، ولو لم يهتم بالنوافل والمكروهات، فقد حصَّل الحد الأدنى من اليقظة التي ينجو بها عند الله، فقد قال ﷺ للرجل الذي قال إنه يأتي بالفرائض(٢) ولا يزيد عليها: «أفلح إن صدق»(٣).

ـ وإذا وجدت اليقظة والانتباه في ضمير الإنسان، فعرف أن له هدفاً ومقصداً خلق له، وأن له طريقاً للخير والحق يجب أن يبحث عنه ليحقق هدفه، فطبيعي أن يفكر ويسأل نفسه: لماذا لا أكون من أحسن الناس، ألا أستطيع أن أكون الأرقى بينهم، وكيف الطريق إلى ذلك، وكم حققت من هذا الطريق.

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ج ١٥، ص ٩.

(٢) ومن الفرائض تركُ المحرمات.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٦ ومسلم رقم ١١، عن طلحة بن عبيد الله ﷺ.

ضد الإنابة: الإعراض

وأخطر من الغفلة: الإعراض، وهو أن يدرك الإنسان الحق، ويطلع على ما يدعوه إلى اليقظة ومع ذلك يعرض ويدير قلبه ووجهه عن الحق، ويبقى على حاله من الفساد والباطل والشهوة والانحراف.

والإعراض نوع من الظلم للنفس، يظلم فيه الإنسان حق الله ولا يعطي الحقائق حقها من الإيمان بها والوقوف عندها، بل جعل الله ذلك من أكبر الظلم وعدَّه إجراماً فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ(1) مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ـ ومن أسوإ الإعراض أن يجعلك الله في موقف خطير وصعب يُخرجك فيه من الغفلة ويَضطرك فيه للإقبال عليه؛ فتُقبل عليه ثم إذا خرجت من ذلك الموقف أعرضت وتجاهلت ما عرفت، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

ـ ومن أعرض عن الحق فقد كتب الله تعالى عليه التعب في الدنيا بالمشقة والإرهاق النفسي، كما كتب عليه العذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

---

(١) أي: لا أحد أظلم منه.

وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج: ١٥-١٨].

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا * خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(١) ﴾ [الجن: ١٧].

وضرب لنا مثلاً بقوم سَبَإٍ إذ أعرضوا عن الله وشكره؛ فدمَّر بلادهم وأذهب خيراتها، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

---

(١) صَعَداً: أي شاقّاً يغلبه ويعلوه، لا يطيقه ولا يستطيع دفعه.

المبحث الثالث

التوبة إلى الله
وضدها الرضا بالذنب والمعصية والإصرار عليه

إذا بـدأ الإنسـان يتوجه إلى ربه واسـتيقظ ضميره وانتبـه إلى هدفه؛ فإنه يراجـع نفسـه فيما مـضى من حياته، وينتبـه إلى أنه قد جرى منـه أعمال وأقوال خـرج فيها عن الخير والصـواب وفارق فيها المراد الذي خُلِـقَ له؛ فيتوجه إلى التوبـة إلى الله تعالى مما بدر منه ومما سـلف منه مـن معاصي وذنوب ومخالفات وشهوات.

فيعتذر إلى الله من الكفر الذي مضى منه إن كان وقع فيه أو تلفظ بألفاظ كفرية أو عمل أعمالاً كفرية، ويعتذر إلى الله تعالى من تكبره على أحكام الله ومخالفته لها، ويعتذر إلى الله من كبائر ذنوبه والمحرمات التي اقترفها، ويعتذر إلى الله تعالى مما ترك من الفرائض والواجبات.

وإذا كان ذنب المسلم فيه اعتداء على حق إنسان؛ فلا تتم توبته حتى يستسمح ممن أساء إليه، ويرد الحق الذي عليه، فإن كان سرق فعليه أن يرد المال المسروق حتى تصح توبته، وإن كان أكل الربا فعليه أن يرد الربا الذي أخذه فوق رأس ماله حتى تصح توبته، وإذا تسبب في سحر إنسان فعليه أن يسعى في فك سحره حتى تصح توبته، وإذا اغتاب مسلماً فعليه أن يستسمح من المغتاب ويسعى في تحسين صورته عند من اغتابه أمامهم حتى تصح توبته.

وهذا هو الحد الأدنى من التوبة، وإن تاب معها من الصغائر والهفوات، وتاب من تقصيره في النوافل والسنن؛ فذلك أكمل في حق الإنسان، وأدعى لصدق الإقبال على الله.

وكلما كانت معرفة العبد بربه وبسعة رحمته وسعة مغفرته(1) أكثر؛ كان ذلك أدعى لتوبته ورجوعه وإقباله على الله.

والتوبة هي حال قلبي يستشعر معه الإنسان أنه قد أذنب وأخطأ في حق من يجب عليه أن يطيعه ويعظمه ويعظم أمره، ويستشعر الندم على ما فرط منه.

ويُعَبِّر الإنسان عن توبته بالاستغفار بلسانه، ولا يكفي أن يجري الاستغفار على لسانه وهو لا يستشعر أنه أذنب وأخطأ، ولا يستشعر ندمه على ذلك.

وإذا رجع الإنسان إلى الذنب مرة أخرى بعد توبته؛ فذلك دليل على عدم الصدق التام في التوبة، ويرجع ذلك في الغالب إلى قلة تعظيم الله وقلة الخوف منه، فواجبه أن يزداد تعرفاً على الله تعالى ويتذكر تلك الصفات والأفعال التي تزيد خوفه وتعظيمه لله، كأن يتذكر أن الله منتقم جبار كبير متعال قهار مذل متكبر، وأنه أهلك من القرون المستكبرة والكافرة والظالمة والعاصية أمماً من قبلنا، وعليه أن يجاهد نفسه ويمنعها من المعصية كلما وجد في نفسه داعية إليها ورغبة فيها.

وقد يرجع الإنسان إلى الذنب إذا كانت لذة المعصية قوية في النفس، فتكون الرغبة فيها والشهوة إليها ما زالت متأصلة ومتجذرة في النفس، بحيث لا يستطيع أن يجاهد نفسه ولا يمنعها من المعصية إذا قويت رغبة النفس فيها، فيحتاج عندئذ إلى الإكثار من الاستغفار والإكثار من الطاعات حتى تقوى همته ويزداد نوره، فيصل إلى حالة يستطيع معها ترك المعصية بإذن الله، وما لم يكثر من الطاعات فسيبقى في مكانه يترك المعصية أحياناً ويقع فيها أحياناً، ولا يقدر على أن يجاهد نفسه ولا يقدر أن يمنعها من المعصية.

(1) وسيأتي بيان شيء من ذلك في موضوع الرجاء.

وينبغي أن يكثر من الاستغفار وخاصة كلما وقع في الذنب، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أنهم لا يصرون على الذنب، والإصرار هو إرادة الإنسان للفعل إرادة جازمة، فمن يريد الذنب فهو مصر عليه ولو لم يفعله، فإذا منعه منه مانع فهو متصف بالإصرار رغم عدم فعله، وليس هذا من شأن المؤمن، ومن وقع في الذنب مراراً لكنه لا يحب الذنب ويكره وقوعه فيه، فهو غير مصر عليه، رغم تكراره فعلاً، فهذا قد يكون عند المؤمن وهو أهل لأن يغفر له إذا تاب واستغفر كما بينت الآية.

وفعل الطاعات هو مكفر للذنوب، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، ولقوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[١].

وتكفير الطاعات للذنوب يختص بالصغائر لقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[٢]، فالكبائر فلا بد لها من توبة خاصة بها، فالله تعالى أمر بالتوبة فتكون واجبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التحريم: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧، عن أبي ذر رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وتمام الحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه رقم ٢٣٣.

ـ والإنسان الذي ما زالت في قلبه رغبات باطلة وشهوات تدفعه إلى المعاصي؛ فإن هذه الشهوات تشوش عليه طاعته، وتقلل من حضوره مع الله، وقد لا يستطيع أن يدفعها، لذلك ننصحه أن يستغل الفرصة بعدما يقع في الذنب مباشرة وتكون شهوته قد فَتَرَت وخمدت قليلاً، ويكون حزنه وندمه قد قَوِي؛ فليستغل هذه الساعات بعد المعصية لينشط إلى عبادة فيها تذلل وإقبال وحزن ورغبة في الإقبال على الله، فسيجد في عبادة هذه الساعات بركة وأثراً في تخلصه من الذنوب بإذن الله تعالى.

ـ ولا يزال المسلم يتوب ويحرص على التوبة ويكثر من الاستغفار صباح مساء، ويستغفر كلما أذنب، حتى يتحقق بالتوبة، فلا يقع في ذنب إلا بادر إلى التوبة منه، وكلما شك أنه وقع في ذنب استغفر وتاب، ويكون خائفاً من ذنوبه، خائفاً من عقاب الله عليها، خائفاً من عدم عفو الله، خائفاً من أن يُختم له بالذنوب، فالمؤمن ـ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ـ يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا[1].

ـ والمؤمن يخاف من ذنوبه كيف ما كانت، حتى التي لم يتعمدها والتي سيفعلها في المستقبل، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا ذلك من خلال دعائه الذي كانوا يدعو به: «رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزْلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[2].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٣٥ عن أبي موسى رضي الله عنه.

ـ والتوبة يبقى بابها مفتوحاً حتى تطلع الشمس من مغربها أو تغرغر الروح عند الموت، فاجعل رجاءك وأملك وحسن ظنك بالله كبيراً وأقبل عليه تائباً، وأنت لا تدري متى يأتيك الموت؛ فلا تؤخر توبتك.

المبحث الرابع

الزهد

وضده الرغبة في الدنيا وشهواتها وزينتها وما فيها مما تهواه النفس

ـ إذا أراد الإنسان أن يتوب إلى الله فإن أعظم ما يحول دونه ودون التوبة تعلقه بالدنيا وما فيها من شهوات، تجذبه وتشده إلى معصية الله، فما من معصية إلا وفيها شهوة للنفس ولذة، وكل ما في الدنيا من لذات إذا كان فيها مخالفة لأمر الله يسمى دنيا(١)، فلا تتم توبة الإنسان حتى يزهد في الدنيا وتُحْتَقَر شهواتُها في قلبه ونظره، فعندئذ لا يحتاج أن يجاهد نفسه في ترك الذنوب والشهوات؛ لعدم تعلق قلبه بها أصلاً.

لذلك كان الزهد موجباً لحب الله تعالى، قال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله»(٢)، وبيان ذلك أن الإنسان ما دام يحب شيئاً من الدنيا فإنه يشغله ذلك عن طاعة الله، ويتعلق قلبه به بدلاً من أن يتعلق بالله، فإذا تخلص من ذلك وقع الحب لله في قلبه حقاً، وإذا رأى اللهُ قلبَك قد فَرُغَ له فإنه يُحِبُّك.

ـ إذا علم الإنسان قيمة الدنيا وهوانها عند الله عز وجل، وأنها محل للبلاء والاختبار والفتنة للناس، وأنها وسيلة يتوصَّل بها إلى غيرها، وأنه سيموت

(١) كما سبق أن بيناه.

(٢) حديث حسنه بعض العلماء، أخرجه ابن ماجه رقم ٤١٠٢ والحاكم رقم ٧٨٧٣ عن سهل ابن سعد ﷺ، وصحح إسناده، وتتمة الحديث عند الحاكم: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

وينتقل عنها[١]؛ فإنه يكون حذراً من جواذبها وفتنها وزخارفها وزينتها، وكلما تذكر الإنسان قيمة الدنيا عند الله وعند رسوله ﷺ[٢]؛ هانت الدنيا في قلبه وقَلَّتْ جواذبها، وكلما تذكر الآخرة وعظمتها وما فيها من ثواب ورحمة وقرب؛ اشتدت الرغبة في العمل للآخرة ونشط الجسد إلى الطاعات، ولم يتكاسل عنها، وهان عليه ترك لذات الدنيا ليحصل لذات الآخرة العظيمة الدائمة.

وليس المقصود بالزهد ترك الدنيا وعدم الأخذ منها، فذلك لا يقدر عليه أحد، لأن الله أَحْوَجَنا إلى الدنيا، فمن الواجب أن يأخذ الإنسان حاجاته الأساسية من الدنيا، كالطعام والشراب الذي يقيم أوده واللباس الذي يواري جسده ويحميه من البرد والحر، والسكن الذي يؤويه، والعلاج الذي يشفيه، ونحو ذلك.

وإنما المقصود ترك التعلق بالدنيا، فلا تترك واجباً لأجلها، ولا تقع في محرم من شهوتك لها، وتبذل ما أوجب الله عليك بذله منها، من نفقة على نفسك وعيالك وقرابتك ورَحِمِك بها، ومن زكاة، ومن إنفاق للدعوة إلى دين الله، ومن إنفاق للجهاد في سبيل الله، حينما يكون ذلك واجباً.

فإذا قام الإنسان بواجباته وأعطى من الدنيا ما وجب عليه، فلو كانت كثيرة بعد ذلك في يده، وكان يملك منها الكثير، واستعمله في ما أباح الله له، ولم ينشغل به عن الواجبات؛ فإن ذلك لا يضره، ولا يتنافى مع الحد الأدنى الواجب من الزهد.

---

(١) موجبات الزهد في الدنيا أربع حقائق، عرفنا بها الله ورسوله ﷺ، إذا عرفها الإنسان وتذكَّرَها زَهَّدَتْه بالدنيا، وكانت سبباً في التعامل الصحيح مع الدنيا، قد ذكرناها في المنهج الفكري، وهي أن الدنيا وسيلة، وأنها هينة، وأنها محل اختبار وابتلاء، وأنها إلى انتهاء وانتقال عنها، وقد ذكرنا أدلتها هناك.

(٢) وقد بينا ذلك في الكلام عن الحقائق التي يدركها العقل.

بل إن الدنيا حينما تُستعمل لإقامة أمر الدين، ولِما يَنفع الإنسان في آخرته؛ لا تبقى دنيا في نظر الدين وإنما تصير آخرة، كما نجد النبي ﷺ يحفر الخندق مع أصحابه، وهو يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخره، فأصلح الأنصار والمهاجره»[1]، وحفر الخندق عمل دنيوي أراده النبي ﷺ لأجل الدين، فلما كان مقصوداً لأجل الدين والآخرة صار آخرة ولم يعد دنيا، فسماه النبي ﷺ عيش الآخرة.

ـ **والحد الأدنى من الزهد،** وهو الحد الواجب الذي يجب أن يكون في قلب كل مسلم: هو أن لا تعظم الدنيا ـ أو أي شهوة من شهواتها ـ عظمةً تجعله يُعرِض عن إيمانه بالله ويُنكِر آخرته، ولا تعظم عنده عظمة تشغله عن فرائضه، ولا يشتد تعلقه بها أو بأي شيء من زينتها وشهواتها بحيث يدفعه إلى المحرمات والكبائر.

فمن دفعه حبه للدنيا أن ينكر الآخرة فليس عنده من الزهد شيء، ومن دفعه حبه للدنيا وشهواتها وأموالها أن ينكر أحكام الله ليبيح لنفسه شهواتها وحرامها فليس عنده من الزهد شيء، ولا يعرف من حقيقة الدنيا شيء، أو يعرفها ولكنه يكذب ويتنكر ليستبيح لنفسه كل حرام ومنكر.

وفي هؤلاء ورد قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٥٠ ونحوه مسلم رقم ١٨٠٥.

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٧][١]، فهؤلاء الذين حبهم للدنيا أوصلهم إلى الكفر وإنكار الإيمان، فهم الذين لا نصيب لهم في الآخرة، وهم الذين ليس لهم إلا النار، ولا يجوز حمل هذه الآيات على من كان عنده شيء من الزهد يمنعه من إنكار الإيمان، ولو كان عنده رغبة في الدنيا تدفعه إلى الكبائر وترك الفرائض، دون إنكار حكم الله فيها[٢].

ومن شغله حبه للمال عن الصلاة فليس عنده الحد الأدنى من الزهد، ومن دفعته رغبته بالدخان والطعام أن يترك الصيام الفرض فليس عنده الحد الأدنى من الزهد، وكذلك من منعه حبه للدنيا والحياة من الجهاد الذي أوجبه الله عليه، وكذلك من دفعه حبه للنساء أن يقع في الزنا أو النظر المحرَّم فليس عنده الحد الأدنى من الزهد، وكذلك من دفعه حبه للخمر ونشوتها أن يشربها، وكذلك من دفعها حبها لمدح جمالها أن تترك الحجاب، فهؤلاء وأمثالهم ليس عندهم الحد الأدنى من الزهد.

---

(١) وقد وردت هذه الآية ضمن الآيات التالية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٩].

(٢) وقد نبه عبد الله بن عمر ﷺ أن بعض الناس يرتكب خطأً كبيراً حينما يأتي إلى آيات وردت في الكافرين فيحملها على المسلمين، فقد قال البخاري في أحد عناوينه بعد حديث رقم ٦٥٣٠ قال عن الخوارج: «وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين».

وفي هؤلاء ورد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، فنهى أن تكون الدنيا سبباً شاغلاً عن أحكام الله، وبين أن ذلك فيه خسران، فمن يلتهي بالدنيا عن فرائضه قد يؤدي ذلك به إلى عذاب النار، لكنه إن لم يكن معه كفر فلا يخلد صاحبه في النار، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

أما من كان عنده هذا الحد، لكنه شغلته الدنيا عن النوافل ومزيد القرب من الله، وربما دفعته إلى فعل بعض المكروهات والأخذ من زينة الدنيا في المباحات مع إسراف لا يصل إلى حد الحرمة، مع سلامة قلبه من أن يتعلق بالدنيا تعلقاً يضيع عليه الفرائض ويوقعه في المحرمات؛ فإنه يكون قد حصل بهذا الحد الأدنى من الزهد والحد الأدنى من التزكية، ولا يلام، لكنه يكون قد فوت على نفسه الأجر الأعظم والمقام الأرفع ومزيد القرب من الله تعالى.

ولتنبيه هؤلاء ورد قوله تعالى مبيناً أن شأن المفلحين أنهم لا يبخلون بالدنيا بل يقدمونها للآخرة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦]، وفيهم قال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٦]، يحثهم على أن يغتنموا الحياة للآخرة وينشغلوا بالنوافل والتسبيحات ولا ينشغلوا بزينة الدنيا عنها، ومثل ذلك نبه الله تعالى أن لا نأخذ من الدنيا فنلهو به عن أعمال تكون خيراً لنا في الآخرة: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقد حثنا الله تعالى على أن نغتنم الدنيا للآخرة بمدحه للذين يبيعون الدنيا ويقدمونها لينالوا الآخرة، فقال: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ

ﭐلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤]، فهؤلاء الذين تجردوا عن التعلق بالدنيا فقدروا على أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم ويبذلوها لله تعالى لينالوا ببذلها الآخرة وأجرها العظيم.

وحذرنا من أن نميل إلى الدنيا ونطلبها في أعمالنا وعباداتنا وجهادنا: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فالجهاد لإصلاح الناس ونشر دين الله لا لطلب الدنيا وأعراضها وما فيها، وكذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٩٤].

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تشغلهم الدنيا عن واجباتهم ونوافلهم، ولا تخدعهم ولا تنسيهم ربهم، فلم يكونوا ممن قيل فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يأخذون من الدنيا ما أذن الله تعالى لهم وما أباح، فهي زينة لهم ومتعة يأخذونها على وجهها الصحيح، وهم الذين قيل فيهم: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ـ ولا تخرج الشهوة من قلب الإنسان، ولا يتم الزهد بالدنيا وشهواتها للإنسان؛ إلا إذا قوي حبه لله، وقوي خوفه من الله، وهذا ما نبينه فيما يأتي:

المبحث الخامس

حب الله ﷻ وحب رسوله ﷺ وحب المؤمنين وضده الكره والبغض

الحب عاطفة وشعور قلبي يظهر فيه ميل الإنسان إلى محبوبه وتعلقه به، فينشأ عن ذلك كثرة تذكره وحب لقائه والرغبة في إرضائه.

ـ وينشأ الحب لله نتيجة حصول مصلحة وخير وعطاء ورعاية وإحسان من جهة المحبوب[1]، فيرافقه عند ذلك شكر وطاعة وتذلل وافتقار إلى من يقدم له هذا الخير، لأنه لا يستطيع أن يقدم له هذا الخير إلا الله وحده، فمن علم كم هي عطايا الله وإنعامه وفضله عليه، وتفكر بذلك ازداد عنده الحب، وزاد معه التعلق بالله، والشعور بالحاجة إليه والشكر على منته وعطائه وإحسانه.

ومن تفكر في هذا يجد أن الله هو المعطي لكل خير، وهو المستحق لكل الحب، لأنه حتى لو جاء العطاء من غيره، فهو الذي خلقه ورزقه لغيره وهداه إلى أن يعطيه.

فمحبة غير الله ممن يعطي وينفع ـ من حيث الأسباب ـ تتضمن حب الله المعطي الأول والمالك لكل خير والممد لكل شيء.

وإذا أعطاك أحد من المخلوقات عطاءً لكنه لا ينفع نفعاً حقيقياً في آخرتك، فلا قيمة له، ولا يستدعي الحب، أما من أعطاك عطاءً ينفعك في آخرتك ويزيدك قرباً من ربك، فذلك يستدعي حبه، وكل مؤمن يمكن أن

(١) وقد يكون الحب ناشئاً عن مصالح من نوع آخر، كحب الإنسان لولده، فإنه ينشأ عن مصلحة الأب في الاستئناس بالولد، وفي حمله لاسمه، وفي توقع خدمته، ونحو ذلك.

يعطيك هذا العطاء ويدلك على الخير فاستحقوا الحب، وأعظمهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي دلنا على كل الخير، وأعطانا كل ما يمكن أن ننتفع منه نفعاً حقيقياً عند الله، لذلك استحق أن نحبه أكثر من غيره.

ـ وينشأ الحب أيضاً عن جمال الشيء وحسنه[1]، وصفات الله هي الحُسْن الأعظم والجمال الأكمل، الذي انفرد به الله تعالى في ألوهيته وربوبيته، وصفات رسول الله ﷺ هي الحسن الأكبر بين المخلوقات، في صفاته وأخلاقه وقيامه بأمر الله وإحسانه إلى غيره من الخلق، وغير ذلك.

والمؤمن حسن وجميل بقدر إيمانه وعمله الصالح، لأنه به يستحق العطاء والخير في الآخرة، وبه يستحق الرضا من الله، فحسنه حسن حقيقي، بخلاف من كان حسناً في صورته وبعض تصرفاته، لكنه يتصرف ويعمل أشياء تمنعه من الخير في الآخرة، فحسنه ليس حقيقياً وليس مكتملاً، وإنما هو وَهْم، فإذا قارنته بالحسن الحقيقي لم تجد له قيمة، ولم تجده جذّاباً، ولا سبباً في الحب والتعلق، كمثل إنسان رأيت شكله حسناً ولباسه حسناً فاخراً فأحببته لأول وهلة، ثم إذا عاملته فأساء إليك كرهته ولم تر لحسن شكله وهندامه قيمة، ولا مؤثراً في الحب، وعلمت أن حبك الأول كان وهماً.

وإذا رأيت إنساناً دميم الخِلقة مهترئ اللباس ربما كرهته، فإذا اضطررت إلى معاملته فرأيته محسِناً أديباً منصفاً عادلاً كريماً؛ انجذبت إليه

---

(١) ومن ذلك أنك يمكن أن تحب ولدك لجمال طفولته أو لجمال خلقته أو لجمال تصرفاته، وتحب الوردة والشجرة والمنظر الحسن لحسنه، ولو لم تنتفع منه، فمجرد حسنه يعتبر مصلحة بالنسبة إليك، فحسن الشيء وجماله يدخل على النفس بهجة، لأن الله خلق في النفس ميلاً إلى الحسن والجمال، وهذه مصلحة متحققة من حسنه، ولما كانت هذه مصلحة؛ فإن حب الشيء لحسنه؛ يرجع إلى الأمر الأول الذي ينشأ عنه الحب: وهو المصلحة والنفع والإحسان.

وتعلقت به وأحببته، وعلمت أن كرهك له أولاً كان وهماً وخداعاً بمظهر، لا بحقيقة.

ـ فإذا تفكرت بهذه الحقائق، وتذكرت أين الجمال وأين المصالح؛ نشأ عندك الحب ونمى وظهرت آثاره عليك، فبقدر ما تملك هذه الحقائق عليك نفسك وتشغل خواطرك؛ بقدر ما ينمو الحب لله ولرسوله وللمؤمنين.

فعندئذ لا يكون حب فوق حب الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولا يكون حب لمخلوق فوق حب رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١)، وفي رواية: «من أهله وماله والناس أجمعين»(٢)، ولا يكون المؤمن عندئذ إلا محبوباً تتناصر معه على الحق وتواليه، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وتَوَلِّيْهم لبعض هي من نتائج حبهم لبعض.

ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ من المؤمنين، وكانوا أكثر التزاماً بأمر الله، وجعلهم الله السبب في حمل القرآن وإيصال الدين إلينا، رباهم رسول الله ﷺ، ومن أحسن منه تربية، وشهد الله لهم بالعدالة والصدق والسبق والرضا عنهم(٣)؛ لذلك فيجب أن يكون حبنا لهم أكثر من حبنا لغيرهم من المؤمنين في

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٥، ومسلم رقم ٤٤ عن أنس ﵁.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٤.

(٣) قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، فمدح الذين مع النبي ﷺ وهم أصحابه. ومدح في آية أخرى السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ =

كل عصر من العصور، فقد أحسنوا إلينا، وهم أحسن منا، فوجب حبهم أكثر من غيرهم وأكثر من أنفسنا.

ـ ومن أحبوا الله أحبهم الله، لأنهم عرفوا قدره وتعلقوا به ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، ودليل صدقهم في حبهم أن يقوموا بحق هذا الحب من إيمان وعمل صالح وطاعة وعبودية لله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ولا شك أن حب الله لهم سبب في تطهيرهم وتزكيتهم ورفعهم وتنعيمهم في الآخرة والرضوان عنهم.

ـ ومَنْ أحبوا النبي ﷺ الحب المطلوب تفانوا في طاعته ومتابعته والتشبه به وبأعماله وأقواله وأخلاقه الظاهرة والباطنة وهيئته وأحواله ودعوته وجهاده، وتطلعوا إلى حمل إرثه والنيابة عنه في رسالته.

ـ **والحد الأدنى الواجب من الحب:** هو أن يكون المسلم في قلبه مسلِّماً ومعترفاً بما يقتضيه العقل من حبٍّ لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، رافضاً ما يتنافى مع ذلك، منكراً كل خاطر فيه ميل أكبر إلى غيرهم، فحتى لو لم يشعر بعاطفة

= جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] ثم استثنى في الآية التي تليها المنافقين.

ومدح الذين شاركوا في بيعة الرضوان، فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-٢٠].

وقال ﷺ مبيناً عظيم أجرهم: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» أخرجه البخاري رقم ٣٤٧٠ ومسلم رقم ٢٥٤٠ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ومعناه أن الصحابي إذا تصدق بقدر ملء الكفين فأجره أكبر من أجرنا إذا تصدقنا بقدر جبل أُحُدٍ من الذهب.

جياشة وميلٍ قويٍّ في قلبه إلى الله ورسوله ﷺ وإلى المؤمنين، لكنه وجد نفسه وقلبه معترفاً أن الذي يستحق الحب الأكبر هو الله، وأن الذي يستحق الحب الأكبر بين المخلوقين هو النبي ﷺ، وأن المؤمن لا بد أن يحبه؛ فقد حصل بذلك الحد الأدنى من الحب، الذي به يحقق فريضة الحب في أدنى درجاته، ويدفعه ذلك بإذن الله إلى طلبِ مرضاة الله وطاعتِه في أمره والحذرِ من معصيته، ويدفعه إلى طاعة رسول الله ﷺ، كما يدفعه إلى نصرة المؤمنين والإحسان لهم.

وإذا كان الحب يدفع إلى الطاعة فهذا على سبيل العموم، فقد يزلُّ المحب فيقع في شيء من الذنوب والمعاصي، وربما تكون كبيرة، رغم وجود هذا الحب، فعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يُضحِك رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب[1] فأُتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوَالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»[2]، فانظر كيف حرَّم لعنه، وعلل ذلك بأنه يحب الله ورسوله ﷺ رغم أنه كان يقع في كبيرة شرب الخمر، التي استحق لأجلها الجلد والعقوبة وإقامة الحد عليه.

ـ وحتى يكون الإنسان صادقاً في حبه، فلْيَعْرِض على نفسه وقلبه أنه لو خُيِّر بين رغباته النفسية وشهواته الغرائزية وبين أن يرى النبي ﷺ فأيهما يختار؟ فإذا اختار رؤية النبي ﷺ فهذا يملك أدنى الحب.

ثم ليعرض على نفسه أنه لو خير بين رغباته الدنيوية وشهواته الوهمية وبين طاعة النبي ﷺ ومتابعة أمره فأيهما يختار؟ فإن اختار في الجملة الطاعة فهو

---

(١) أي في شراب الخمر.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٣٩٨.

محب وعنده علامة صدق على الحب، ولا ينافي ذلك الوقوع في بعض الشهوات، لكنه علامة على النقص في الحب لا على فقدان الحب.

ثم يعرض على نفسه أنه لو خُيِّر بين رغباته ولهوه والتزيد من الدنيا، وبين نصرة النبي ﷺ والدعوة بدعوته والجهاد لها، فأيها يختار؟ فإن اختار الدعوة والجهاد على ملذاته المباحة فذلك أصدق الناس في الحب وأعلاهم نصيباً منه، إن كان صادقاً مخلصاً في ذلك، ولم يكن له حظ نفسي أو جاه أو منفعة دنيوية يقصدها من الدعوة والجهاد والتعليم والأمر بالخير.

أهم أسباب تولُّد الحب الإيماني في القلب عند الناس:

هنالك طريقتان في العادة يمكن أن ينشأ الحب من خلالها:

الطريقة الأولى: برجوع الإنسان إلى العقل:

فإذا رجع إلى عقله يدرك أين هي المصلحة الحقيقية التي ينبغي أن يميل إليها القلب، فيتبين له من هو الذي يملك مصالحنا ومن هو الأحسن(١) الذي يجب أن تتعلق به قلوبنا ونفوسنا.

لذلك يستطيع الإنسان في لحظة واحدة أن يُحَوِّلَ حبه القلبي من جهة إلى جهة أخرى، بمجرد أن يصل إلى الحقيقة في ذلك، وبهذا تفهم حديث البخاري في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب

---

(١) كما تبين لك قبل قليل، وكما وضحته وفصلته في الكلام عن تزكية العقل والفكر، وعن الحقائق التي يجب أن يعرفها ليبني عليها التزكية.

إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(١)، فانظر كيف غير بلحظة واحدة، حينما نبهه النبي ﷺ إلى أنه لا يصلح ما هو عليه، فإنه مخالف للحق، فانتبه فوراً وغيَّر ميله، وأدرك لمن يجب أن يتوجه بالحب الأكبر(٢).

الطريقة الثانية: بحب أحد من الناس، والالتفات إلى الحب الأعلى بسببه:

كثيراً ما يكون الإنسان غافلاً عن حب الله ﷻ وحب رسوله ﷺ، أو معرضاً عنهما، أو منشغلاً بالدنيا عنهما وعن حبهما، أو غير محدِّث عقله بمن يجب أن يحب، فيجد في حياته إنساناً صالحاً صادقاً متخلقاً بالأخلاق الحميدة الراقية متعاملاً بالحسنى، أو يجد شيخاً طيباً مستقيماً جذاباً بكلامه وأخلاقه ومعاملته وأعماله، فتميل نفسه إليه وتحبه وتتعلق به، فيزداد حباً له يوماً بعد يوم، فإذا تعلق به فترة من الزمان؛ يكتشف ويجد أن سبب حسنه وصلاحه وأخلاقه هو متابعته للنبي ﷺ وطاعته له، وأن فضله وأجره راجع إلى رسول الله ﷺ، فيبدأ عنده التعلق برسول الله ﷺ، ثم يعلم وينتبه إلى أن حُسْنَ هذا الإنسان أو الشيخ لا يساوي شيئاً في جنب حسنِ رسول الله ﷺ، فيتولد عن ذلك زيادة حب النبي ﷺ أكثر من حب الشيخ الصالح، ثم يعلم وينتبه إلى أن حُسنَ رسول الله ﷺ راجع إلى فضل الله عليه وإحسان الله إليه، ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، كما ينتبه من خلال تعلقه بشرع رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٢٥٧.

(٢) ويرى بعض العلماء أن حبه لرسول الله ﷺ كان أكبر من قبل، لكنه لم يكن منتبهاً إلى ذلك، فلما نبهه النبي ﷺ لاحَظَ نفسه وساءَلَها عن حبها وميلها الأكبر، فوجده لرسول الله ﷺ فقال مخبراً بما وَجَدَه وانتبه إليه: «فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي»، وهذا التوجيه محتمل، لكن ظاهر الحديث أقرب إلى ما ذكرناه، والله أعلم.

ﷺ إلى فضل الله وجماله وإحسانه ووجوب محبته الحب الأكمل فيتعلق به أكثر ويزيد حبه له على حبه لرسول الله ﷺ، بل يصير حبه للنبي ﷺ هو بعضَ حبه لله ﷻ، ويصير حبه للشيخ هو بعض حبه لرسول الله ﷺ، لأن سبب الحب للشيخ راجع إلى فضل الرسول ﷺ، وسبب حب الرسول ﷺ والشيخ راجع إلى فضل الله تعالى.

ومن هاهنا تعرف أهمية الرجل الصالح والشيخ الصالح في هداية الناس، وأهميته في إنشاء حب الله ﷻ وحب رسوله ﷺ عند الناس(١).

وبهذا الطريق تجد كثيراً من الناس يدخل في الإسلام، أو يدخل في طريق التزكية، فهو يجد الرجل الذي ينجذب قلبه إليه، ومن خلاله يهتدي إلى الإسلام أو إلى طريق الإحسان والمقامات العالية والأخلاق الراقية، وإلى ما يتضمنه من حب الله ﷻ ورسوله ﷺ.

ـ وإذا كان الحب يرجع إلى الحسن أو الإحسان أو إليهما معاً؛ فإن الإنسان يجب أن يحب من تساويا في الحسن والإيمان حباً متساوياً، لكن إذا كان أحدهما أكثر إحساناً إليه، بأن كانت هدايته على يده أو دله على طريق القرب إلى الله، فإنه يمتاز على صاحبه بالإحسان، لذلك فمن الطبيعي أن يحبه أكثر من الآخر، على الرغم من أنهما في رتبة واحدة، ومن هاهنا كان من السائغ أن يحب الإنسان شيخه أكثر من غيره، لأنه استفاد منه وانتفع منه أكثر من غيره من الصالحين.

---

(١) وعلى الإنسان أن يحذر من أولئك الذين يتظاهرون بالجمال والحُسن، ليقودوا الناس إلى الباطل والفحشاء أو إلى الكفر والعصيان.

ما يقابل الحب لله ﷻ ولرسوله ﷺ وللمؤمنين

يقابل الحب الكره لله، وهو نوع من أنواع الكفر، وقد تحدثنا عنه عند الكلام عن أمراض القلوب الخطيرة التي تمنع الإيمان، كما بينا سبيل علاجه.

كما أن حُبُّ أي شيء فوق حب الله يتنافى مع حب الله، وإنما يكون ذلك نتيجة تعظيم شيء غير الله أكثر منه، ونتيجة توهم أن غيرَ الله أهمُّ منه وأنفع منه، وقد يأتي نتيجة الانشغال والغفلة عن الله وعن عظمته وجلاله وكرمه وإحسانه، وحتى يتجنب الإنسان هذه الأمور التي تحول دون حب الله، وحتى لا يوجد عند الإنسان ما يحول دون الحب؛ قدَّمنا الكلام عن اليقظة والزهد.

وأي شيء يتعلق قلب الإنسان به فإنه يُنقِص حبَّ الله ﷻ أو يُفوِّته أو يشغل عنه: كحب الدنيا والمال والشهوات والرغبةِ في الجاه والرياسة والإمارة ونحو ذلك، فيكون القلب مريضاً بطلب هذه الأمور المحبوبات المرغوبات من النفس، ومن عرف قيمة هذه الأمور ووزنها في الآخرة ذهب عنه وهمها وغشها وبهرجها، وبحث عن النعيم في الآخرة، وعن الجاه في الآخرة، ومعرفة ذلك مرتبط بمعرفة قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، ويعين فيه معرفة أحكام الله المتعلقة بذلك، بمعرفة ما الذي أباحه الله من هذه الأمور، وما الذي يجب تقديمه على المباح.

ومما ينتج عن التعلق بغير الله أمراض كثيرة: كالقلق وخوف الفقر وَهَمِّ الرزق والحرص على الدنيا والشَّرَه في أخذها، وإنما تنتج هذه الأمراض بسبب التعلق بالدنيا والثقة بها، وهي ليست أهلاً لأن يوثق بها، ولعدم الثقة بمن يُوثَقُ به، وبمن يملك أن يزيل هذه المخاوف والأوهام، وهو الله ﷻ.

ـ وعدم حب النبي ﷺ يؤدي إلى أن يوالي الإنسان نفسه وهواه وشيطانه أو من لا تنفعه طاعته، فيعيش حياته في غير ما ينفعه، كلها أوهام، وتعظيم للمحقَّرات، واحتقار للمعظَّمات، يحب أشخاصاً لا ينفعه حبهم بل يؤخره، ويتشبه بهم ويتعلق بهم ويعيش لهم، وهم يبعدونه عن الله، ويحب أعمالاً ويعتادها ويعطي لها وقته وجهده، مخالفاً بذلك النبي ﷺ، ولا ينتفع منها، بل يتضرر، ويتحمل سيئات وذنوباً.

ـ وعدم حب المؤمنين أو نقصه يؤدي إلى دخول أمراض إلى القلب كالتباغض والحقد والحسد، كما يؤدي إلى مناصرة من لا يستحق المناصرة، والتعاون معهم، بدل التعاون مع المؤمنين الذين يستحقون المناصرة والولاية والمعاونة على الخير.

اجتماع الحب الغرائزي والحب الشهواني مع الحب القلبي السليم

١. **الحب الغريزي**: وهو الحب الذي جعله الله بين الوالدين وأولادهم وبين القرابة والرَّحِم؛ يمكن أن يجتمع هذا الحب مع الحب الإيماني إذا كان الأقرباء من أهل الإيمان، ولا يتنافى هذا الحب عندئذ، أما إذا كان القريب من أهل الكفر، فلا يجوز حبه، وإنما تتحول العاطفة في نفسك إلى حب الهداية له، وتظهر في بَذْلِك جُهداً عليه أكثر من غيره رغبة في هدايته.

والدليل على عدم التنافي بين حب القريب وحب الإيمان إذا كان القريب مؤمناً: الأحاديث التي بينت فضيلة الحب بين المؤمنين، مع ما أمرنا به من الصلة والتراحم مع الأرحام والقرابة، مع ما أمرنا الله من حب قرابة النبي ﷺ فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، فالقرابة لها مزية في الحب إذا وُجِد الإيمان، أما إذا انتفى الإيمان فلا قيمة للقرابة، حتى قرابة

النبي ﷺ الذين يجب مودتهم هم مَن كان مؤمناً من قرابة النبي ﷺ، لما سيأتي من أدلة تمنع حب الكافر ولو كان من القرابة والعشيرة والأسرة.

والدليل على أن القريب الكافر تتوجه نحوه العاطفة لهدايته أكثر من غيره: أَمْرُ الله تعالى لنبيه ﷺ أن يبدأ الدعوة بدعوة قرابته: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

والدليل على أن الكافر لا يجوز حبه ولو كان من الأقارب، ولو كان أحد الوالدين؛ قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كما لا يجوز أن يوافق المسلم قرابته الكافرين على باطلهم ولا أن ينصرهم عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثم هدد في الآية التي تليها من يقدم محبة أقرباءه أو دنياه على حب الله ﷻ ورسوله ﷺ وأمره، فقال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وخُص الوالدان بحسن الصحبة والمعاملة رغم عدم حبهما وعدم طاعتهما في باطل، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥] ويجوز للإنسان أن يصل قرابته ورحمه شيئاً ما رغم كفرهم من غير دخول الحب إلى القلب، فالنبي ﷺ

ذكر قرابته الكافرين فقال: «ولكنْ لهم رَحِمٌ أَبُلُّها بِبَلالها»(١)، فقوله أبلها: شَبَّهَ صِلته لهم بالبلل والندى إشارة إلى عدم التوسع فيها، وقوله ببلالها: يدل على أن ذلك متوقف على موقفهم منه أيضاً، فإن جاملوه وصلهم، والمؤمن يتخذ ذلك وسيلة إلى دعوتهم وتذكيرهم.

ـ ومن شأن الحب أنه يدعو إلى الطاعة والمتابعة، فإذا أحببت قرابتك ووالديك وأطعتهم ووافقتهم لأنهم من أهل الإيمان، فأَمَرَك أي أحد منهم بمخالفة أمر الله فلا طاعة له، ولا ينبغي أن تجعل الحب سبباً في طاعته فيما ينقض حب الله وطاعته، لذلك جاء الأمر النبوي: «والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٢)، وقال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»(٣).

٢. **الحب الشهواني**: وهو الحب الذي يرتبط بقضاء الوطر والشهوة والتلذذ، وهذا قد حرمه الله تعالى إلا بين الرجل وزوجته أو ملك يمينه(٤)،

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٤٤، عن عمرو بن العاص ﷺ، وشرح البخاري الحديث فقال بعده: يعني أَصِلُها بصلتها، وروى مسلم رقم ٢٠٤ نحوه عن أبي هريرة قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً... غير أن لكم رحماً سأَبُلُّها بِبَلالها.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٧٢٥ ومسلم رقم ١٨٣٩، عن عبد الله بن عمر ﷺ.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ١٨٤٠، عن علي ﷺ.

(٤) ملك اليمين: هي الأنثى الأَمَة، التي يملكها الإنسان من الرقيق، فإذا كان يملكها بشراء أو غيره فإنه يحل له أن يتمتع بها كتمتع الرجل بزوجته، إذا لم يزوجها لأحد غيره، والقوانين العالمية قد حرمته ومنعته اليوم، وكاد ينتهي من الأرض، وأسباب رجوعه في الشريعة الإسلامية هي فقط الحرب مع الكفار، وصاحب الحق في منع ذلك أو إبقائه هو خليفة المسلمين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩-٣١].

ولا يجوز لإنسان أن يحرك عاطفة الشهوة والحب الشهواني نحو أحد إلا زوجته وملك يمينه، فلا يجوز أن يشتهي أي امرأة أو بنت أو أي رجل أو صبي، فذلك الحب الشهواني والميل إلى هؤلاء حرام، وشاغل للقلب عن الحب الحق، كما يؤدي في الظاهر إلى معاصٍ كالنظر المحرَّم وكالكلام المحرم والخلطة المحرمة والخلوة المحرمة، وربما أدى إلى الزنا واللواط أو مقدماتها، أعاذنا الله من كل ذلك.

حتى المرأة المخطوبة والمرأة التي يريد الإنسان أن يخطبها أو يتزوجها، لا يجوز للإنسان أن يحبها حباً شهوانياً ويفكر بها تفكيراً شهوانياً ولا أن يتحرك نحوها بعاطفة شهوانية، وإنما يجوز له أن يحب زواجها، وأن يحب السعي إلى زواجها، حتى إذا عقد العقد عليها جاز أن يحبها حباً شهوانياً، فهو مباح له عندئذ، ولا يعد ذلك مؤثراً على الإيمان ولا على الحد الأدنى من التزكية، ما لم يشغل الإنسان عن أمر ربه وفرائضه.

ومن ابتلي بحب امرأة والميل إليها ولم تكن متزوجة، فهو متجاوز في هذا الحب، لكنه مع ذلك فقد بين النبي ﷺ أسهل علاج لهذا الأمر، فقال: «لم يـر للمتحابين مثل التزوج»(١)، وفي هذا التوجيه النبوي تنبيه لنا لنتعاون مع هؤلاء المبتلين بالحب، بتزويجهم من بعضهم، حتى لا يتفاقم الأمر ويؤدي إلى علاقات محرمة، أو حتى حرمانهما من بعضهما إلى حالات نفسية سيئة، تعكر حياة الطرفين.

(١) حديث صحيح، أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٢٦٧٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجة رقم ١٨٤٧ بلفظ «النكاح».

ولا ينبغي أن يفهم من الحديث أنه إقرار لوجود حالات حب قبل الزواج، وإنما هو علاج لأمر قد يبتلى به الناس.

ومن ابتلي بمخالطة الأولاد والصبيان والمُرْدان[1] والجميلين أو تدريسهم، أو ابتلي بمخالطة النساء أو تدريسهن، فوجد في نفسه ميلاً إليهم وحباً، فعليه أن ينظر في هذا الحب، هل هو تعلق إيماني طبيعي، يحبهم لأجل استقامتهم وطاعتهم، أم يحبهم لشهوة في نفسه إليهم، فإن كانت الأولى فلا حرج عليه، وعليه أن يتقيد بآداب الشرع في التعامل معهم ومعهن، وإن كانت الثانية فعليه أن يبتعد عن مخالطتهم ما استطاع، وأن يطهر نفسه من هذا الميل الذي قد يؤدي به إلى ما لا يرضي الله، فربما كان أجره فيما يقدمه لهم من نفع أقل من إثمه فيما يشتهي بغير حق، وربما كان اختلاطه بهم لدنيا، فيخسر لأجلها آخرته، فعليه أن يجد سبيلاً للخلاص والبعد عن هذه الأجواء المريضة، ولْيَصْدُقِ الإنسان مع نفسه، فإنه إن تمادى؛ اتسع مرض قلبه واشتد، وصعب علاجه، وامتنع علاج آثاره الفاسدة إن وقع فيها.

ـ ومن اضطر للتعامل مع كافر أو تزوج امرأة كتابية[2]؛ فلا يجوز له أن

---

(١) الأمرد: من لم تظهر له لحية.

(٢) مع التنبيه إلى أن زواج الكتابية يشترط فيه التأكد من عفتها وعدم وقوعها في الزنا، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: ٥]، وأن تكون مؤمنة بدينها النصراني أو اليهودي، لا أن تكون ممن تقول أنا غير مقتنعة بديني النصراني أو اليهودي، ولم تدخل في الإسلام؛ فهي عندئذ تكون مشركة كافرة أو ملحدة ولا تكون كتابية، كما ينبغي أن يتجنب الإنسان زواج الكتابية التي يمكن أن تقود أبناءه إلى الكفر، وخاصة في البلاد التي تعطي المرأة حقاً في أن تحتفظ بأبنائها، فإن زواج الكتابية عندئذ يمنع تربية أبنائه وتزكيتهم ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وإنما أجاز الإسلام زواج =

يحبهم ويميل بقلبه إليهم، وإن أَحْسَنَ التعاملَ معهم، وإنما يحب من زوجته الكتابية شهوته منها، ويحب جمالها الذي أذن الله له التمتع به بعد الزواج منها، دون أن يميل قلبه إلى محبتها على كفرها، ودون أن يدخل في نفسه أي نوع من الإقرار لكفرها.

= المرأة الكتابية لأن الوضع الطبيعي أن المرأة تخضع لزوجها وتقنع بما عنده، فيفترض في إخواننا الذي يتزوجون كتابيات أن يكونوا قادرين فكرياً على الإقناع بدينهم، لا أن يكونوا ضعفاء فكرياً فتؤثر زوجاتهم عليهم وعلى أبنائهم، بدلاً من أن يؤثروا فيهن.

المبحث السادس

الخوف من الله
وضده الأمن من مكر الله وغضبه

الله تعالى عظيم جليل متعال، كبير قادر، منتقم جبار قهار، مهيمن قابض خافض مذل، عليٌّ قوي، شديد العقاب، ذو الطول، عزيز ذو انتقام، لا يرد بأسه.

إن الإيمان بهذه الصفات يوجب أن يخاف العبد من الله، فيكون طائعاً أديباً ذاكراً خاضعاً ذليلاً حذراً منتبهاً.

خلق الله الإنسان وأمره بطاعته، فإذا أطاع أمن، وإذا عصى فقد عرض نفسه لوقوع ما يخافه من الله من عذاب وشدة ونكال وعقاب وجحيم.

وقد أمرنا الله أن نعظمه ونرهبه ونخاف منه ونحذر من عقابه وبطشه، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال: ﷻ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تخوفنا من عذاب الله وناره وغضبه وعقابه، كما حدث النبي ﷺ بأحاديث كثيرة توجب الخوف وتدل عليه: كأحاديث الحساب والموقف والسؤال ودخول النار، واستحقاق غضب الله وناره وشدة عذابه.

وبين لنا الله ﷻ أن الجنة إنما يستحقها من خاف من الله، فقال ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ

ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وهذا دليل على أن الخوف من الله فريضة من الفرائض القلبية، لأنه شرط في دخول الجنة.

وقد نبهنا النبي ﷺ أن من عرف الله خاف حتى يقل ضحكه ويكثر بكاؤه، فقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال أنس: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين[١]، وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت[٢] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[٣].

وعلمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من غضبه: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٤]، وقال: «وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»[٥].

وعلامة الصدق في الخوف من الله؛ أن يندفع الإنسان إلى العمل الصالح،

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٣٤٥ ومسلم نحوه رقم ٢٣٥٩ عن أنس بن مالك ﷺ، والخنين: صوت من يبكي إذا اشتد بكاؤه وظهر صوت من أنفه.

(٢) الأطيط: صوت الرحل والقتب وشبههما، والمقصود أنه صدر منها صوت عظيم.

(٣) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٣١٢ وقال: غريب حسن، ونحوه أحمد رقم ٢١٥٥٥ عن أبي ذر ﷺ.

(٤) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٢٨ وقال: حسن غريب، وأبو داود رقم ٣٨٩٣، والنسائي رقم ١٠٦٠١ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرج نحوه أحمد رقم ٢٣٨٩٠ عن الوليد بن الوليد.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٤٨٦ عن عائشة رضي الله عنها، وهذا اللفظ للترمذي رقم ٣٥٦٦ وابن خزيمة رقم ٦٥٥، وهذا الدعاء جزء من دعاء للنبي ﷺ كان يدعوه في الوتر أو في قيام الليل.

قال رسول الله ﷺ: «من خاف[1] أدلج[2]، ومن أدلج بلغ المنزل[3]، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[4]، والمؤمن يخاف أن يفوته نعيم الجنة الغالي، وكلما زاد خوفه زاد اجتهاده وعمله الصالح.

ـ **والحد الأدنى الذي يجب أن يكون عند المسلم من الخوف**: أن يوجد في قلب المسلم حذر من العقاب إذا لم يقم بالواجبات والفرائض، أو إذا أتى بالمحرمات، فإذا وجد في القلب حذر وانزعاج من الوقوع في الكبائر والمعاصي وانزعاج من ترك الفرائض، فقد وجد الحد الأدنى من هذه الصفة القلبية، صفة الخوف.

ويظهر أثر ذلك في حرص الإنسان على فعل الفرائض، وتركه للمعاصي.

ـ وخوف المسلم يمنعه من أن يغتر بإيمانه وأعماله الصالحة، فيبقى خائفاً من مكر الله أن يصرفه عن إيمانه أو عن طاعته، أو أن يُقَلِّبَ قلبه إلى الباطل، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وكان يدعو النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[5]، «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[6]، وقال ﷺ: «... فوالذي لا إله

(١) أي خاف البيات بعيداً عن بيته ودياره، والكلام هنا كناية عن خوف العذاب في الآخرة.

(٢) أي سار من أول الليل، وهو كناية عن التشمير في الطاعة وإرضاء الله تعالى.

(٣) أي داره، وهو كناية عن بلوغ الجنة.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ وحسنه، والحاكم رقم ٧٨٥١ وصحح إسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد رقم ١٢١٢٨ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٨٣ والترمذي رقم ٢١٤٠ وحسنه وابن حبان رقم ٩٤٣ والحاكم رقم ١٩٢٦ وصححه، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠، ص ١٧٦.

(٦) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

غيره؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة(١) حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(٢).

ـ ومن صح خوفه صح انتباهه ويقظته وتذكُّرُه للحق وكان أهلاً للهداية، قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال جَلَّالَهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

ولا يتحقق سير الإنسان في تزكية نفسه وطلبه لخيره إلا بوجود الخشية، فمن كان آمناً في نفسه من الله وعقابه لم يجد دافعاً إلى طلب إرضائه والسعي في العمل لإرضائه، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۞ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ٨-١٠]، فمن كان هذا شأنه ساعياً طالباً، خاشياً متواضعاً، غير غافل ولا مستكبر؛ فهو الأهل لطلب العلم والحق والتزكية؛ فلا يحق لنبي ولا لشيخ أن يتلهى عنه أو يهمله.

---

(١) وفي رواية صحيحة: «فيما يرى للناس».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٠٣٦ ومسلم رقم ٢٦٤٣، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

المبحث السابع

الرجاء من الله
وضده اليأس من رحمة الله

إن إيمان الإنسان بأسماء الله وصفاته وأن الله رحمن رحيم، رؤوف غفور، تواب عفو، يوجِدُ في قلب المؤمن رجاءً وتَوَقُّعاً لرحمة الله وإحسانه وفضله وتجاوزه عن ذنوب الإنسان، فيبقى طامعاً في رحمة الله، طامعاً في أن يخلِّصه من ذنوبه، طامعاً في أن يقيمه على ما أمره به وأن يهديه إلى الحق والطريق المستقيم، ولا يزال يتوقع ذلك دائماً من الله وينتظره من الله، مهما كان حاله ومهما أساء، ولكنه لا يكتفي بانتظار ذلك بقلبه؛ وإنما يسعى إليه بعمله الصالح وطاعته، وبتركه للمعصية ومجاهدته لنفسه فيها، وباستغفاره وتوبته إن وقع فيما لا ينبغي، وبذلك يتعرض لرحمة الله وعفوه وفضله، مع ما في قلبه من رجاء وحسن ظن بالله تعالى أن الله تعالى يَعفو عنه ويُصلحه ويَقبله ويُرقيه ويكرمه ويعطيه من فضله وجنته وقربه، بإذنه وإحسانه.

ـ والمسلم يرجو من الله تعالى ويتوقع أن يثيبه على أعماله ويأجره عليها، ويدخله الجنة بها، رحمة منه سبحانه، كما يتوقع المسلم أن يكرمه الله من فضله زيادة على ما قَدَّمَ، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

ـ ومن لم يكن عنده رجاء وتَوَقُّعٌ للرحمة والجنة والقرب من الله؛ فلن يكون عنده دافعٌ إلى طاعة الله ﷻ وطاعة الرسول ﷺ، فليس هناك شيء يرجوه ويطمع به ويتوقعه على العمل فلِمَ يعمل؟، لذلك نبهنا الله إلى أنه لا يقتدي

بالنبي ﷺ إلا من كان راجياً لفضل الله وقربه وراجياً لجزائه وجنته في الآخرة، فقال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فلا بد للمسلم أن يعرف من صفات الله ووعده ما يجعله يرجو رحمة الله وفضله، فيندفع إلى العمل الصالح طالباً بذلك ما يرجوه وما يتوقعه مما أعده الله له، فيكون هدفه دافعاً له إلى العمل المطلوب، قال الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ وجَلَّ: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، فذكر عملهم من ركوع وسجود، وذكر ابتغاءهم ورجاءهم للفضل والرضوان، وقال فيهم: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

ـ ورجاء القلب وتوقعه لرحمة الله لا يكون من غير عمل، وإلا كان كأنه استهتار بأمر الله واستهانة بجلاله، إذ كيف يرجو إحسانه وهو يعارضه ويعصيه ويتخلف عن أمره، لذلك فالله تعالى بين أن وجود العمل هو بذاته يمثل حالة الرجاء الصحيحة، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة:٢١٨]، فكأن الآية تقول: بعملهم يرجون، فكأن الرجاء ليس هو شيء غير العمل، أو كأنه يقول: من صدر منه العمل وهو الإيمان وما تبعه من طاعات يمكن أن يصدر من الرجاء.

وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] كأنه حصر وجود الرجاء في هؤلاء، فإن وُجِد الرجاء ولم يكن معه عمل فكأن صاحبه ليس من أهل الرجاء حقيقة، ولا ينبغي أن يتوقع رحمة الله ولا أن ينتظرها، بل هو ليس أهلاً لها.

ونبه الله تعالى إلى لزوم العمل مع الإخلاص لمن يرجو، فقال ﷻ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

ـ وهذا لا يعني منع الرحمة والرجاء والتوبة عمن لا عمل له، فإن الإيمان إذا كان عند الإنسان فهو عمل، فتح الله لصاحبه باب الرجاء لرحمة الله فعن جابر ﵁ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يُشرك به شيئاً دخل النار»(١).

والحديث يدل على أن الكافر لا أمل له في رحمة الله، هذا ما بينه قول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

ـ وإذا كان من مات لا يشرك شيئاً له أمل في رحمة الله؛ فلا ينبغي لهذا الذي لم يشرك أن يركن إلى مجرد الإيمان دون العمل الصالح، لأن الإيمان يقتضي الإقبال إلى العبادات، فحتى ترجو رحمة الله فلا بد أن ترغب بالعمل الذي ترضي به الله، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فذكر أن الرحمة كتبت لمن جمع بين الإيمان وهذه الفرائض.

ـ ومن غفل عن الله وعصاه وانشغل بشهواته فطبيعي أن لا يكون له رجاء من الله، وهذا ما أخبر الله تعالى به إذ جمع بين هذه الصفات وبين صفة عدم الرجاء من الله في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا (٢) وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٩٣، ونحوه البخاري رقم ١١٨١ ومسلم رقم ٩٢ عن عبد الله بن مسعود ﵁.

(٢) ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي: لا يتوقعون الآخرةَ ولقاءَ الله، أو معناه: لا يتوقعون منا خيراً في الآخرة عند لقاء الله وحسابه والوقوف بين يديه.

ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨].

ـ ولا ينبغي أن يكون ذنبك سبباً في ترك الرجاء، فالله تعالى كثير الغفران، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا؛ لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»(١)، ورجاء العبد وأمله بالمغفرة باق لا ينقطع إلا بالموت، قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢)، أي مالم تخرج روحه.

ـ ولما كان الخير كله بيد الله وهو القادر على كل شيء فلا يمكن أن يكون رجاءُ المسلم من الله أقلَّ من رجاء الكافرين من غير الله، قال سبحانه مبيناً ذلك من شأن المؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

ـ **والحد الأدنى من الرجاء**: أن يثق الإنسان بوعد الله وأن الله يرحم العبد بطاعته ويتجاوز عن سيئته إن تاب، ثقة تجعله يتوقع الرحمة والمغفرة، وإذا خطر في باله أن الله لن يرحمه؛ فلا ينسب ذلك إلى عجز الله وقلة رحمته، فالله تعالى رحيم واسع قادر، وإنما ينسبه إلى نفسه، فيسيء الظن بنفسه ويتهم نفسه بعدم أهليته وصدقه في عمله وتوبته، ومع اتهام نفسه يبقى يحسن الظن بالله ويتوقع فضل الله في أن يؤهله لرحمته ويمنَّ عليه بصدق التوبة، فلا يصل إلى حدِّ اليأس والقنوط من رحمة الله جل جلاله.

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٤٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه مسلم رقم ٢٧٤٨ عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣٧ وقال: حسن غريب، وابن حبان في صحيحه رقم ٦٢٨، والحاكم في المستدرك رقم ٧٦٥٩ وصحح إسناده، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذا القدر الأدنى يظهر أثره في وجود الحد الأدنى المطلوب من العمل، وهو الإيمان والقيام بالفرائض وترك المعاصي المحرمات والكبائر، فلا يصل إلى أن يترك شيئاً من الفرائض؛ يأساً من رحمة الله، ولا يصل إلى أن يترك التوبة والإنابة إن وقع في ذنب، يأساً من مغفرة الله، فمهما أذنب الإنسان فإن باب التوبة مفتوح له، فلْيَرْجُ ربَّه وليُقْبِل بصدق في توبته ورجوعه إلى الله وإقباله على طاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ضد الرجاء: اليأس من رحمة الله

ـ إن اليأس من الله وانقطاع رجاءِ الرحمة منه؛ فيه نوع من التشكيك بعفو الله وسعة رحمته، وفيه شك بقدرة الله على تغيير حال الإنسان إلى خير، ومن هاهنا كان اليأس أخطر من الذنوب.

فمهما كثرت ذنوب إنسان لا ينبغي أن ييأس ويقنط من رحمة الله، فإن يأسه أسوأُ من كل ذنوبه، إذ إن ذنوب الإنسان معاصي لله تعالى، لكن اليأس من مغفرتها ضلال قد يصل إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ [1] إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، فاليأس ليس من شأن أهل الإيمان.

فإذا خطر في بالك خاطر اليأس من الله ومن عفوه ورحمته وإحسانه؛ فتذكر صفات رحمته وإحسانه ورُدَّ كيد الشيطان وتوهيمه، ولا تتجاوب مع مراد الشيطان الذي يريد أن يبعدك ويثنيك عن العمل ويريد أن يوقعك في الشك بالله وبرحمته.

(١) ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾: أي لا يقطعُ أمله من الله ورجاءه في رحمته وإحسانه.

التكامل بين الخوف والرجاء ووجوب اجتماعهما

ـ من كان يؤمن بأن الله تعالى جليل قهار منتقم جبار شديد العقاب، ونحوها من الأسماء، لا ينبغي أن يكون إيمانه هذا دافعاً له إلى اليأس، وإنما يكون دافعاً إلى ترك المعاصي.

وإنما يكون إيمان الإنسان بهذه الأسماء والصفات سبباً في اليأس حينما لا يجتمع معه الإيمان بأن الله عفو غفور رحيم، فاليأس لا يأتي إلا عن نقص في الإيمان بالله وصفاته.

وكذلك فالإيمان باسم العفو والرحيم والغفور لا يكون سبباً في الأمن من مكر الله؛ إلا حينما لا يكون معه إيمان باسم الجبار المنتقم شديد البأس والعقاب.

وبهذا تعلم أن النتائج الباطلة ـ كاليأس والأمن من مكر الله؛ تعلم أن هذه النتائج الباطلة لما هو مطلوب ـ من الخوف والرجاء ـ لم تأت من اعتقاد صحيح، وإنما جاءت من نقص الإيمان.

وبناء على ما سبق فَهِم العلماء أن الخوف والرجاء لا يجوز أن يكون أحدهما دون الآخر، وإلا أدى إلى محظور وخطر، فشبهوا لأجل ذلك الرجاء والخوف بجناحي الطائر، فلو قطع أحدهما؛ لم ينقص الطائر فحسب، بل إنه يسقط ولا يستطيع الطيران، وكذلك لا ترقي ولا إقبال على الله إلا باجتماع الخوف مع الرجاء.

ـ والله تعالى ذكَّرنا بما يستوجب الخوف والرجاء معاً حتى لا يؤدي إلى حال باطل، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠].

ووصف المؤمنين بأنهم يجمعون بين الخوف والرجاء فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقد بين النبي ﷺ أن من جمع بين الخوف والرجاء فهو المستحق لمغفرة الله، قال ﷺ: «إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ، وربما قال: أصبت، فاغفر لي، فقال ربه: عَلِمَ عبدي أن له رباً **يغفر الذنب ويأخذ به**، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت أو أصبت آخرَ فاغفره، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، وربما قال: أصاب ذنباً، قال: قال رب أصبت أو قال: أذنبتُ آخرَ فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثلاثاً، فليعمل ما شاء» (١)، ومعناه: فليعمل ما شاء ما دام على هذه الحال؛ كلما أذنب ذنباً استغفر منه مع الرجاء والخوف من الله، ولا ينبغي للمسلم أن يقف عند هذا الحد بل يطلب أن تكون نفسه أطهر وأزكى حتى تطمئن وتركن إلى أحكام الله فلا تخالفها، ولا يصدر عنها العصيان.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٧٠٦٨ عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم نحوه رقم ٢٧٥٨، يرويه حديثاً قدسياً.

وذكر لنا النبي ﷺ ما يقتضي وجود الخوف والرجاء معاً، في مثل قوله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة؛ ما قنِطَ من جنته أحد»(١).

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الثامن

الشكر لله
وضده الجحود

الله تعالى هو الخالق لكل ما هو موجود، المالك لكل ما خلق، المعطي منه لعباده ما شاء، فهو الرازق الذي يبسط الرزق لمن يشاء، لا عطاء إلا منه، ولا رزق إلا منه، ولا كَرَم إلا مما خلق لنا، وكل ما يستفيد منه الخلق فهو من خلق الله، سخره لهم في هذه الدنيا، وأمرهم بشكره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

عطاؤه ورزقه ونِعَمُه يعطيها لخلقه بحكمة وتقدير، ومنعه بتقدير وحكمة، وهو العليم الخبير بعباده، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

ـ وكل ما في الكون من نِعَم في أنفسنا ومِن حولنا فهي عطايا من الله، خَلَقَها وهَيّأها لنا، ثم خَلَقَنا فوجدناها، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ثم أخبرنا بأنه هو الذي خلقها وأنعم علينا بها: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فإنما هي عطايا لنا، لم يمنعنا إياها، لكنه طالبنا بشكرها عبادة له: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] وإنما منعنا من الخبائث التي خلقها اختباراً لنا، قال ﷻ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وما سخره الله لنا من نعم في هذا الكون يقتضي منا شكراً واعترافاً بفضل الله وفرحاً به وبإحسانه: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

ـ لا يمنع ولا يقدِّر ولا يقبض عن بخل أو عن نقص، فله ما في السماوات وما في الأرض، وهو قادر على أن يخلق ما يشاء وأن يعطي ما يشاء، لكنه العليم الحكيم المقدِّر، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ * وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ * وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

ـ والله تعالى لم يكلفنا من الشكر ما لا نطيق، فلا يريد أن ترد إليه نعمته، فإنك لا تستطيع ذلك، وإنما يريد منك اعترافك بفضله وحمدك له على نعمته، فعن أَنَس ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيرضَى عنِ العبْدِ يَأْكُلُ الأكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عليْهَا، وَيَشْرب الشَّرْبَةَ فَيحْمَدُهُ عَلَيْهَا»(١).

ـ والمؤمن يشكر الله على كل شيء، حتى ما كان ظاهره شدةً وبلاءً، ذلك لأنه لا يتصور أن يفعل الله إلا الخير والرحمة، قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]، فما أنزله الله من مقادير وما أنزله من تشريعات؛ كل ذلك هو الخير، وكل بلاء فإن المراد منه خيرنا، فهمنا ذلك أم لم نفهمه، فهو محل اختبارنا وترقيتنا إذا نحن عرفنا حق الله تعالى واستسلمنا له، وأجر المؤمن

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٣٤، عن أنس بن مالك ﷺ.

الشاكر على البلاء عظيم، فعَن أَبي مُوسى الأشعريَّ ﵁ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا ماتَ ولَدُ العبْدِ قال الله تعالى لملائِكَتِهِ: قَبضْتُمْ ولَدَ عبْدِي؟ فيقولُون: نَعمْ، فَيقولُ: قبضتُم ثَمرةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقولُ: فَماذَا قال عَبْدي؟ فيقولون: حمِدكَ واسْتَرْجَع(1)، فَيقُولُ الله تَعالى: ابْنُوا لِعَبْدِي بيْتاً في الجنَّةِ، وسَمُّوهُ بَيْتَ الحمْدِ»(2).

ـ ولا يكمل شكر الإنسان على نعم الله حتى يكون عابداً تقياً، فإذا استعمل ما أعطاه الله من عقل وقلب وجسم في طاعة الله فقد شكر، وهذا ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي بتقواكم تكونون شاكرين، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦] أي كن شاكراً بعبادتك، فلا ينبغي أن يعبد الله وهو يظن أن الله لا يستحق منه العبادة، بل لله عليه فضل يقتضي منه أن يكون لأجله عابداً طائعاً في كل حياته وأموره.

ومن لم يقر بحق الله في أن يُعبد فقد كفره وجحده قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ـ فالشكر واجب، **والحدُّ الأدنى الواجب من الشكر**: الاعتراف بأن الله هو المنعم لكل النعم، وعدم إنكار فضله وحقه، وأن نستعمل نعمه فيما أوجب علينا من الطاعات، وأن لا نستعملها في معصيته، فلا يصح أن نتمتع بما أعطنا من عقل وجوارح وغيرها ثم نخالف مراده فيها ونعصي أمره، ونبخل ببذلها واستعمالها فيما أمرنا به من واجبات.

---

(١) (استرجع): أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ١٠٢١، عن أبي موسى الأشعري ﵁، وقالَ: حديثٌ حسنٌ غريب.

فواجب الشكر بالقلب: الاعتراف بالمنعم والفرح بإنعامه، فرحاً يجعله يعترف بحق المنعم، فيُحقِّق واجبَ الشكر بالجوارح، وهو القيام بالفرائض وترك المعاصي، فيعترف به عملياً، مع إقرار اللسان وتصديقه بالحمد والشكر قولاً وذكراً.

فإن زاد اعترافاً وفرحاً وشكراً رغب في ما يزيد على الواجبات فاجتهد في النوافل والقربات، كما قال النبي ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١).

فأكثِرْ من تَذَكُّر النِّعم، والتفكير بفضل الله فيها، وأكثِرْ من حمد الله؛ لتكون شاكراً بقلبك ولسانك، وانظر في عملك فلا تقصر فيما طلب الله منك، ولا تكن حيث نهاك، لتكون شاكراً بجوارحك.

(١) أخرجه البخاري رقم ١٠٧٨، ونصه: عن المغيرة ﵁ يقول: إنْ كان النبي ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حتى تَرِمَ قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً». «ترم»: أي تنتفخ وتتورم، «فيقال له»: أي يُسأل عن ذلك أن يخفف عن نفسه. وروى مسلم نحوه ٢٨١٩، وروى البخاري رقم ٤٥٥٧ رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»، فلما كثر لحمه صلَّى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام، فقرأ ثم ركع.

ضد الشكر: الجحود

كل إنسان يستطيع أن يرى الدلائل على أن أي نعمة من النعم لا يقدر على إيجادها مخلوق، ولا يقدر على خلقها وإيجادها وترتيبها وتيسيرها إلا الله، فإذا كذب بذلك وجحد فهو كذاب مزوِّرٌ للحقائق، مجرم في حق الله، إذ ينفي حق صاحب الفضل عليه، ومجرم في حق نفسه إذ يستوجب العقاب والعذاب لنفسه، ومجرم في حق الخلق الذين يزور عليهم ويشوش عليهم.

وتزوير الحقائق الواضحات تكبُّر على الحق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢]، فواجب الإنسان المريض بالتكذيب والجحود والتزوير وعدم الاعتراف بالمنعم؛ أن يردَّ نفسه إلى الصدق والتواضع، فالحق أحق بأن يُعترف به، ولا ينتظرْ مثل هذا الموقف الخطير الذي يُشعِرُه بضعفه وافتقاره وحاجته إلى المنعم، فإنه ما لم يرجع إلى الحق؛ فقد يقف هذا الموقف ثم يرجع إلى تكذيبه، كما ذكرت الآية في حق هؤلاء الذين تعرضوا لخطر البحر فاعترفوا، ثم رجعوا إلى التكذيب، فكيف بهم إذا وقفوا الموقف الذي لا ينفع الصدق فيه، ولا رجوع منه، بين يدي الله يوم القيامة.

ولن ينتفع الإنسان من جحوده في الدنيا وتكبره على الحق، فالله أقوى وهو قادر على عقاب الجاحدين في الوقت الذي يريده، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

ـ وقد يكون الإنسان كالجاحد إذا كان **غافلاً** عن نعم الله، غافلاً عن تذكُّر فضلِ مُنعِمها، فلا يَنسب الفضل إلى صاحبه، ولا ينسب النعم إلى منعمها، بل

يكون غافلاً عنه، ملتفتاً إلى الأسباب وحدها، وقد يصل بذلك إلى حدِّ الكفر والتكذيب لغفلته وجهله، وأمثال هؤلاء هم الذين ورد فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٧]، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ـ وحتى يعالج الإنسان هذين الأمرين؛ فواجب الإنسان أن يفكر فيما يرى من النعم المبثوثة في نفسه وفي الكون، فإنها تدل على الله المنعم بها والخالق لها، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣]، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

والإنسان وُجِدَ فوجد أمامه هذه النعم، ومَثله في ذلك كرجل جاء إلى مكان فوجد فيه طعاماً جاهزاً، ولم ير صانعه، فلا بد أن يتساءل: من صنع هذا، ونحن نرى كل ما في الكون وكل ما هُيِّأَ لنا، فلماذا لا نتساءل: من أوجده، ومن أعطانا إياه؟

ولم يَدَّعِ أحدٌ ولم يقل أحد إنه موجِدُه إلا الله، فالأصل تصديقه، حتى يثبت خلاف ذلك، فكيف إذا ثبت عقلاً وشرعاً أنه لا يمكن أن يُوجده ويخلقه ويسخره إلا الله، ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله، فهو منشؤها وهو الذي مكننا من الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

والدلائل واضحات على إنعام الله وفضله، بحيث لا تحتاج إلى دليل أكثر من التعجب من منكرها، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ

فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل: ٧١].

ـ وشكر الله على نعمه يقتضي استعمال نعم الله على وفق أمره، والقيام بأوامر الله يحتاج إلى صبر وتحمل، فلا بد من الحديث عن الصبر، كما أن نعم الله قد تأتي بصورة البلاء والشدة؛ فإذا صبر الإنسان وتعامل معها وفق أمر الله؛ كانت نعمة، وإذا لم يصبر فقد ضيع معنى النعمة فيها، فإذا فقد الصبر فقدت النعمة وفقد الشكر عليها، فإلى بيان الصبر:

المبحث التاسع

الصبر على أحكام الله وقضائه وضده الكسل والجزع

إن إيمان الإنسان بأن الله تعالى هو مالك الخلق جميعاً، فهو مالك السموات والأرض وما فيهن، وإن إيمان الإنسان بأن لله الحق في أن يُقدر ويقضي ما يشاء في ملكه؛ يستدعي منا أن نصبر على مراد الله مهما كان، من خير أو شر نراه، من رخاء أو شدة، من رحمة أو بلاء، من ربح أو خسارة، من عافية أو مرض أو غير ذلك.

وليس للعبد المملوك أن ينزعج من سيده ومالكه وخالقه وربه، ليس له إلا أن يرضى بما يريد، يرضى بقضائه، ويستسلم لتدبيره، ويُسلّم لعلمه وحكمته.

وإيمان الإنسان بأن الله له الحق في أن يأمر خلقه وينهى، ويحكم فيهم، ويطالبهم بأشياء وأعمال؛ يقتضي منا ويستدعي أن نطيعه ما أمر، وأن نصبر على هذه الطاعة ونتحمل ما فيها من جهد أو مشقة، ويقتضي منا أن نترك ما حرم ونهى عنه، وأن نصبر على ترك المعاصي وما فيها من شهوات أو لذات.

فالإيمان باسم الله العليم الحكيم يقتضي الصبر على الأوامر والنواهي.

والإيمان باسم الله القادر المقتدر المقدر الذي لا مشيئة غير مشيئته يقتضي الصبر على كل بلاء.

والإنسان يصبر على المشقة النفسية القلبية في ذلك، كما يصبر على مشقته الجسدية.

والصبر يدخل كل شيء في حياة الإنسان، فما من فعل أو ترك إلا ويحتاج إلى صبر وتحمل، وما من حالة قلبية إلا وتحتاج إلى صبر، فإما صبر على الشر والأذى والمزعجات، وإما صبر على ترك الطغيان عند الخير والمُفرِحات.

لذلك أمرنا الله بالصبر بعد أن ذكر البِر الذي يشمل كل خير يعمله الإنسان ويشمل كل شر يتركه الإنسان، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وجعل من أهم أسباب فلاحنا وجود الصبر عندنا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومن أعظم الفلاح أن ينال العبد محبة مولاه ونصرته، والصبر مما يوصل إلى ذلك، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وأمرنا أن نذكر بعضنا بالصبر لأهميته: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [البلد: ١٧، العصر: ٣].

ونبهنا ربنا سبحانه أن لا نعتمد على أنفسنا وقوتنا، وأن لا نظن أن الصبر يأتي بغير مدده وإحسانه، فنبهنا إلى أن الصبر عطاء منه، لنطلبه منه ونعتمد في وجوده عليه، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

ومن لم يكن صابراً فعليه أن يتصبر، أي أن يتكلف الصبر حتى يصير الصبر طبعاً وسجية فيه، والعبد إذا استمد الصبر من الله وطلبه منه أعطاه إياه، ويكون استمداد الإنسان للصبر من الله لا بالدعاء فحسب، بل وبمحاولته الصبر ورغبته به، فإذا تكلف الصبر وبَذَل الصبر الذي أعطاه الله من قَبْلُ فإن الله يمده بما أراد من الصبر ويزيده، قال ﷺ: «ومن يتصبر يُصبره الله، وما

أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»(1)، والحديث يدل على أنه كلما زاد الصبر كان الإنسان أرقى وعطاؤه أوسع، لأنه كلما زاد الصبر زادت الطاعة والاجتهاد، وكلما زاد الصبر ذهبت المعصية، وكلما زاد الصبر زاد الرضا والحلم والتحمل.

ولا ينبغي للإنسان أن يكسلَ ويتعاجزَ ويعلنَ عدم قدرته على الأعمال التي طلبت منه، لذلك أمرنا أن نستعيذ بالله من العجز والكسل، فكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»(2)، وقال ﷺ «واستعن بالله ولا تعجز»(3).

وإنما يأتي الكسل والعجز والفتور من نسيان هدف الإنسان من عمله وصبره، فإذا نسي الآخرة وما فيها من جنة ورضوان؛ لم يعد يجد ما يدفعه ويرغبه بالعمل والصبر، وكذلك يتكاسل الإنسان وتفتر همته إذا يئس من تحقيق هدفه، **لذلك يجب تذكُّر الهدفِ ونتائجِ الأعمال دائماً، ويحرم اليأس والقنوط من رحمة الله.**

ـ ومن أعظم أنواع الصبر دوام الإنسان على الطاعة وثباته عليها، صابراً متحملاً فعلها باستمرار، قال تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وبقاء الصبر مع العمل يجعل العمل محبوباً أكثر عند الله قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قل»(4)، وهذه المداومة هي الثبات وهي الصبر.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٠٥٣، وتمامه عندهما: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر...».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٦٦٨ ومسلم رقم ٢٧٠٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري ٥٥٢٣ ومسلم ٧٨٢، وتمام نصه كما في البخاري: =

وقال تعالى: ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص: ٥٤]، فللصابرين أجران؛ أجر للعمل وأجر للصبر في العمل(١).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢) ﴾ [الزمر: ١٠] يبين أن أجر الصبر في العمل أعظم من أجر العمل، لأن العمل محدود ينتهي، والصبر مستمر، فيكون أجر الصبر لا نهاية له، وإنما اعتبر الصبر مستمراً لأن الإنسان يُثبِت بصبره أنه لو عاش آلاف السنين لما ترك العمل ولاستمر عليه، فإذا لقي الله على ذلك العمل صابراً عليه مستمراً لا ينوي تركه؛ فكأنه باق عليه حتى بعد مماته، باق بهمته ونيته التي بقيت بوجود صفة الصبر، أما إذا لم يصبر فوقف عند حد ولم يستمر فإنه يكتب له العمل دون الصبر.

ـ **والحد الأدنى من الصبر الواجب**: هو إجبار النفس وحَمْلُها على تعلم العقائد الحق، وإرغامها على فعل الفرائض القلبية والعملية، ومجاهدتها في ترك المحرمات، والتمنُّع من الجزع عند البلاء، بعدم التسخط على الله أو الاعتراض عليه.

ـ ويسمى الصبر مجاهدةً، لما فيه من بذل جهد على فعل الحق، وبذل جهد

= عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يحتجر حصيراً بالليل فيصلي ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته، حتى كثروا فأقبل فقال: «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل» وزاد مسلم: «وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه»، وفي رواية لمسلم رقم ٧٨٣ زاد: «وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته».

(١) والاستدال بالآية هنا استدلال بعموم اللفظ، أما الاستدلال بها بحسب السياق وبحسب سبب النزول؛ فهي تتحدث عن الذين صبروا على الإيمان بما أنزل قبل الإسلام ثم آمنوا بهذا الدين حينما نزل، فلهم أجران؛ أجر إيمانهم الأول وأجر إيمانهم الثاني.

(٢) بغير حساب: أي لا حد له ولا انتهاء له.

على ترك المعصية والهوى والشهوة، والصبر على ترك المعاصي هو صبرٌ قلبيٌ يمنعُ الإنسان فيه نفسَه شهوتَها المحرمة ويحجزها عن ارتكاب المعصية، فهو متعلقٌ بمنع النفس من التعلق بفعل الباطل، أكثر من كونه متعلقاً بالتحمل الجسدي، قال تعالى مخبراً عن هذا النوع من الصبر: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦].

وكلما جاهد الإنسان نفسه في أمر وصبر فيه، وكلما حبس نفسه في الخير وحبسها عن الشر؛ نَمَتْ عنده القدرة على الصبر، فالصبر ينمو بالتصبر، فإذا صبرت على ما تستطيع الصبر عليه؛ قويت ملكة الصبر عندك فتصير قادراً على الصبر فيما لم تكن تقدر على الصبر فيه، ولا تزال تتسع دائرة الصبر عندك حتى تشمل كل حياتك وكل أمورك.

ـ والصبر على البلاء واجب، وهو من شأن المؤمن دائماً قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(١)، والمؤمن يوطن نفسه على البلاء، ويتوقعه دائماً، لذلك لا يتفاجأ بأي مصيبة أو بلية، مهما كان نوعها، لأن الله أخبرنا أن الدنيا محل بلاء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ [الملك: ٢]، وأخبرنا أن الدنيا بخيرها وشرها فتنة واختبار وبلاء: قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فمن صبر على أنواع البلاء كلها فهو الذي سبقت له البشرى بالأجر والفوز والجنة، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٩٩، عن صهيب رضي الله عنه.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ـ والصابر هو الذي يظهر أثر صبره عند أول وقوع المصيبة، فقد «مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليكَ عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ. فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: **إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١)، وهذا الصابر هو الذي يملك نفسه عند النوازل والمصائب فلا يندفع اندفاعاً أحمق ولا باطلاً، فهو البطل المتملك لنفسه المسيطر عليها، وغير الصابر ضعيف مغلوب، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٢).

ولأجل ذلك كان الصبر ضياءً، قال ﷺ: «والصبر ضياء»(٣).

فالصبر يجعل الإنسان في فسحة وتحكُّم وخيارات كثيرة يتصرف بها كما يشاء، أما غير الصابر فإنه يفقد صوابه، ويضيق نظره عند البلاء والشدة، ويعمل بردة الفعل التي يدخل فيها الشيطان بنزغه، فيتصرف غير الصابر ضمن خيارات واحتمالات قليلة، أكثرها تكون جاهلة وحمقاء وباطلة يندم عليها.

والصبر على الطاعة يحفظ الإنسان على الهداية ونورها فيكون صبره ضياءً له، والصبر على ترك المعصية يحفظه من أن يقع في الظلمات، فيبقى في دائرة النور والضياء(٤).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٢٢٣ ومسلم رقم ٩٢٦ عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٣ ومسلم ٢٦٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٣، ص ١٠١.

ـ والمؤمن إذا صبر واتقى وصار من الصالحين المحسنين فإن حياته تصير حياة رخاء وراحة وسعادة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠]، وضياء الصبر هو الذي أدخلهم في السعادة والحسنى، وليس معنى ذلك أن البلاء يرتفع عنهم، فإن البلاء قد يزداد للصالحين أكثر من غيرهم، ولكنهم بوجود الصبر لا يشعرون بألم نفسي ولا تعب جسدي بسبب همتهم العالية التي تولدت من الصبر، فيعيشون السعادة رغم البلاء الشديد، خاصة وأنهم ينظرون إلى البلاء بمنظار الآخرة فيرونه سعادة وأجراً ومقاماً عالياً.

وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تعالى لم يجعل من سنته رفع البلاء عن الأتقياء الصالحين، بل على العكس، إذا صار الإنسان قوياً صلباً في دينه فإن الله تعالى يبتليه ليرفعه درجات عنده، قال ﷺ: «الأنبياء أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل »(١).

فليس من سنة الله أن يرتفع البلاء إذا استقام المسلم أو حصلت للمسلمين دولة على منهج راشد، ألا ترى إلى ما ابتلي به النبي ﷺ والصحابة في زمن الخلافة الراشدة، إنما يظن ذلك المخطئون الجاهلون ومن كانوا على أخلاق اليهود، انظر

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان ٢٩٠١ ولفظه عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة، وأخرجه الحاكم ذاكراً شدة بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم رقم ٨٢٣١.

إلى قول قوم موسى الذين آمنوا به، حيث قالوا له كما أخبر الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنما الذي يفترق فيه المؤمن عن غيره ويفترق به عن الكافر، أن المؤمن حينما يستقيم يُعطى الصبر، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، فإذا نزل البلاء كان محتملاً راضياً، فيكون وكأن البلاء لم ينزل عليه.

ـ ومن سنة الله تعالى أنه يبتلي عبده الذي يريد به الخير، يبتليه في الدنيا ليطهره وليكفر عنه سيئاته وذنوبه، فيأتي العبد يوم القيامة وليس عليه أثقال ولا أحمال ولا ذنوب ولا عقاب، قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه»(١)، وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(٢)، وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٣).

فوجود البلاء والعقوبات من رحمة الله بالعبد، لكن العبد إذا تلقاها بالرضا كانت رحمة وكفارة، وأما إذا تلقاها بالسخط والانزعاج والاعتراض على الله، فإنها لا تكفر ذنبه، بل تصير ذنباً جديداً ينضاف إلى ذنوبه، ويكون سبباً في بعده عن الله وسبباً في سخط الله عليه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٣١٨ ونحوه مسلم رقم ٢٥٧٣ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٩٦، عن أنس ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٢٩١١، والحاكم في المستدرك رقم ١٢٩١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) حديث حسن، وصححه بعض العلماء، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٩٦، عن أنس ﷺ، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وليس من شأن المؤمن أن يجزع أو يتسخط على الله تعالى أو يعترض على قضائه، أو يقول: ما الذي صنعته حتى ابتلاني الله، أو يقول معترضاً: ما الذي أذنبته حتى أصابني بهذه المصيبة، ليس هذا من شأن المؤمن، بل هذا من شأن الجاهلين أو المستكبرين أو الكافرين.

ـ فاستمسك بالصبر أخي المسلم، كن صابراً على أمر الله، كن صابراً على صلاتك، كن صابراً على صلاة الفجر وغيرها في جماعة، كن صابراً على قيام الليل، كن صابراً على الأخلاق والتواضع مع الوالدين والزوجة والمؤمنين جميعاً، صابراً على ما يصيبك من أذى وإزعاج، كن صابراً على تربية أولادك على الخير والصلاة من غير ضجر ولا تعب، كن صابراً على الفقر والمرض إذا ابتليت بشيء من ذلك، كن صابراً على ترك ما تهواه النفس مما فيه مخالفة لأمر الله، كن صابراً على ترك المعاصي، ولا تحزن على ترك المعصية فليس فيها خير.

ومن أعظم ما يعين على الصبر:

١. انتباه الإنسان إلى نتيجة فعله الصالح الذي يفعله أو معصيته التي يتركها، فالنتيجة الأخروية تشكل دافعاً إلى الصبر على العمل أو الصبر على الترك.

٢. الإكثار من الاستغفار، وترك الذنوب التي تقيده عن الحق والخير.

٣. صحبة الصالحين ومجالستهم، فيتعلم منهم الصبر، ويذكرونه بحق الله تعالى الذي يقتضي الصبر.

ـ ومهما كان الإنسان صبوراً فإنه إذا لم يكن مستسلماً لله راضياً بأحكامه فلن يأتي بشيء من أوامره ولن ينتهي عما نهى عنه، فكان لا بد أن يكون في القلب تسليم ورضى عن الله وأحكامه، وهذا بيان ذلك:

المبحث العاشر

التسليم لله والرضا عن أحكامه وقضائه وضده الاعتراض والسخط

ليس للعبد مع مولاه وخالقه وسيده ورازقه والمحسن إليه إلا أن يستسلم له، فيرضى بما يأمره ويحكم عليه ويُشرِّع له، ويستسلم لما يقضي فيه وعليه وحوله من أمور، فيرضى بما يجريه عليه من أحوال متنوعة من عافية وبلاء أو صحة ومرض أو رخاء وشدة، أو غير ذلك.

قال تعالى مبيناً أن الإيمان لا يتحقق إلا بالتسليم لأحكام الله والرضا بها في القلب، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فإذا كان الإنسان قائماً بالأحكام عاملاً بها، لكنه وجد في نفسه انزعاجاً منها أو من شيء منها ولم يرض بهذا الحكم؛ فإنه لا يكون مؤمناً بحق كما بينت الآية، حتى يسلِّم لله في أحكامه، وكيف لا يسلّم لله تسليماً كاملاً؛ وهو يعلم أن الله تعالى عليم خبير وتشريعه هو الأحسن والخير والأنفع، كيف لا يسلم؛ وهو يعلم أن الله تعالى ما شرع له من شيء إلا لمنفعته وخيره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وبين الله تعالى أن من شأن المؤمن أنه مهما ابتلاه واشتد عليه البلاء يبقى مستسلماً لله ويزيد استسلامه وإيمانه، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ـ قد ينزعج الإنسان بطبعه من البلاء والشدة والمرض والفقر وظلم الناس ونحو ذلك، لكن انزعاجه هذا انزعاج من الخلق والأسباب، أما إذا التفت إلى خالق الأسباب فإنه لا ينزعج منه ومن تقديره وقضائه، لأنه يتذكر أن له حكمة في ذلك كله، وأنه إن صبر وتعامل مع البلاء وفق أمر الله؛ انقلب البلاء إلى نعمة ورحمة وثوابٍ في الآخرة، فحقيقة البلاء نعمة، فكيف ينزعج من الله فيه.

وإذا قوي التفات المؤمن إلى هذا الأمر وأن الله جعل البلاء لحكمة وحق؛ لم يَعُدْ ينزعج من الخلق والأسباب فيما يصل إليه منهم من بلاء، ولكنه ينزعج من جهة أخرى، وهو في حالة مخالفة أحد من الخلق لأمر الله، ووقوع البلاء بسبب المخالفة؛ فينزعج لتعديه على أمر الله، ويحزن عليه، ولا يرضى بوقوع الذنب منه، مع رضاه عن الله فيما أصابه من البلاء بسبب ذلك، فالرضا والانزعاج في هاتين الحالتين كان لجهتين مختلفتين كما ترى.

وقد أخبرنا الله تعالى أن الرضا عنه هو حال أهل الإيمان الذين رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

ومن الرضا عن الله الرضا عن جميع أحكامه، فلا يكفي أن يؤمن أحدنا بالصلاة وهو لا يؤمن بترك الربا، أو تؤمن نساؤنا بالصلاة والصيام ولا تؤمن بالحجاب، ولا يصح اعتراض أحد على شيء من شرع الله وحدوده وأوامره، قال سبحانه: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومن الرضا عن الله: الرضا بفعل الله وقضائه فيك وفي الخلق، فترضى بتقدير الله لك فيما رزقك وفيما رزق غيرك من مال و منزلة و جاه و أولاد و زوجات و دنيا وعلم و صلاح، فلا تعترض على قَدَر الله في شيء، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

ترضى بقضاء الله ما أفقرك أو أغناك، ما أعطاك وأعطى غيرك، فلا تعترض على الله فيما قدَّر لك ولغيرك، فإن الاعتراض على الله فيما أعطاك وفيما أعطى غيرك هو في حقيقته اعتراض على الله، لذلك قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٤]، فلم يقل أم يحسدون الناس على ما عندهم، بل قال: على ما آتاهم الله من فضله، لينبهنا أن حسدهم يتضمن الاعتراض على الله والشك في حكمته، ومن هاهنا كان الحسد خطيراً يمكن أن يصل إلى حد الكفر، لما يتضمن مِن اعتراضٍ على الله وشَكٍّ في حكمته في عطائه لخلقه.

واقنع بما أعطاك الله لتكون راضياً عنه، فذلك هو الغنى الذي ترتاح نفسك معه، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض[1]، وإنما الغنى غنى النفس»[2].

---

(١) العَرَض: أي ما يملكه الإنسان من أشياء كالدور والأراضي والألبسة والسيارات والأموال.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٨١ ومسلم رقم ١٠٥١ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الحادي عشر

الاستقامة على أمر الله

إذا رجع العبد إلى الله وأقبل على الآخرة، وأخرج حب الدنيا من قلبه، وعلم أنه يجب عليه أن يخضع لحكم الله، وعود نفسه على الصبر على ذلك؛ ينتج عن ذلك استقامة العبد على الطاعة وملازمته لها، بحيث يوجد خاطر مستقر في القلب دائماً يحدثه بوجوب استقامته، ويحببها إليه، ويدفعه للبحث عن الأعمال التي بها يكون مستقيماً، ويرافقه خاطر آخر يحذره من المخالفة والعصيان، ويكرِّه إليه ذلك.

وقد أمرنا الله بالاستقامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦]، وفي قوله: (إليه) بعد قوله (فاستقيموا)؛ ما يشعر أن الاستقامة لا تتم إلا مع التوجه القلبي إلى الله.

وأمَر الله تعالى بالاستقامة في قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]، ووصفهم بأنهم تابوا لأن الاستقامة لا تتحقق إلا مع توبة صادقة من الانحراف المعاصي.

وقال ﷺ: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[(١)]، أي فلا تتردد في أن تقوم بمقتضى الإيمان من تحري موافقة أحكامه جميعاً في الأمر والنهي.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٨، وأخرجه أحمد ٣/ ٤١٣ والترمذي رقم ٢٤١٠ وابن حبان والحاكم، وتمام الحديث كما أخرجه الترمذي: عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت: يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به، قال: «قل: ربي الله، ثم استقم» قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وبيَّن الله تعالى في سورة التكوير أن من علم صدق النبي ﷺ والقرآن الذي أنزل إليه؛ فليس له مذهب غيره، فإذا أراد الإنسان أن يستقيم عليه وجد فيه ما يذكره ويهديه، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٩-٢٩].

وعلامة تمام الاستقامة أن يتجرد الإنسان عن أهوائه وعن أهواء غيره من الخلق، ويتبع مراد الله في كل أمره، لذلك قَرَن الله سبحانه الأمر بالاستقامة بترك اتباع الهوى فقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

وحينما يستقيم المسلم على أمر الله؛ يرتاح ضميره وقلبه من أنه لم يفعل ما هو خطأ، ولم يعمل شيئاً يؤدي به إلى العقاب، والله تعالى يثبت هذه الراحة والطمأنينة في قلب هذا المسلم، ويتولى أمره في الدنيا بإعانته على استقامته، وفي الآخرة بثوابه وتنعيمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

والحالة القلبية لمن يستقيم على أمر الله أنه يقظ منتبه في كل وقت وفي كل ظرف يمر عليه؛ هل لله عليه حكم في هذا الوقت، وهل في هذا الحال أو الظرف

الذي يمر فيه حكمٌ لله عليه، سواء تعلق الحكم بفكره أو قلبه أو جسده أو أعماله أو أقواله، أو تعلق به أو بالأمة والمجتمع من حوله، فهو **مراقب لأحكام الله دائماً**.

ـ وإذا استسلم الإنسان لأمر الله، وأراد أن يستقيم على الأعمال والعبادات ويصبر عليها؛ فلا بد أن يتذكر أنها لا تنفع بذاتها، فالله هو النافع الرافع، فلا يكون العمل الصالح على وجهه إلا أن يعتمد فيه العبد على الله، فيستعين بالله، وهذا هو التوكل الذي أُمِرْنا به، وهو من أهم أحوال القلوب الواجبة:

المبحث الثاني عشر

التوكل على الله
وضده الاعتماد على الأسباب

ـ إن الإيمان باسم الوكيل يقتضي التوكل على الله والاعتماد عليه، وعدم الاعتماد على الأسباب.

ومما يقتضي التوكلَ على الله إيمانُ الإنسان بأن الله هو الرب الذي يتصرف في كل شيء، ويمد كل شيء، وهو الخالق لكل شيء، فلا يوجد شيء إلا بمشيئته وقدرته، وهو النافع والمعطي والمانع والرافع والخافض، والباسط والقابض، فلا يتم أمر إلا به، ولا يندفع شر إلا به، فوجب الاعتماد عليه، والاستعانة به في كل أمر، وهذا معنى قولنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

فكل سبب نراه مؤثراً في ظاهر الأمر ليس له تأثير ولا حول ولا قدرة ولا استطاعة، وإنما يتوقف تأثيره على إرادة الله وقدرته وصفاته[2].

ـ أمرنا الله تعالى بالتوكل، وجعل التوكل من شروط الإسلام والإيمان فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والمؤمن لا ينفك عن وصف التوكل، فذلك مما تقتضيه عقيدته وإيمانه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٩٦٨ ومسلم رقم ٢٧٠٤، عن أبي موسى الأشعري ﵁، وفي الحديث بيان أنها كنز من كنوز الجنة.

(٢) انظر في معنى: «لا حول ولا قوة إلا بالله» صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧ / ٢٦.

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وأمرنا الله تعالى بالتوكل في عشرات الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، أمرنا سبحانه أن نتوكل عليه في دفع الضر والسوء وأذى الكافرين.

كما أمرنا أن لا نتوكل على غيره فهو وحده الكافي الحسيب، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عز وجل: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢].

ـ وقد ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ لنا **فضل التوكل والمتوكلين** فمن ذلك:

أن التوكل سبب لمحبة الله لنا: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأنه سبب في الحفظ من الشيطان: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

وبين النبي ﷺ أن التوكل من أسباب دخول الجنة بغير حساب: « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»(١)، والتطير أمر منهي عنه، وطلب الرقية أمر جائز، فبقيت

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي رواية عندهما: «ولا يكتوون».

الصفة المهمة التي بها يدخل الإنسان الجنة بغير حساب هي تحققه بالتوكل.

فما دام كل هذا الفضل بسبب التوكل، فليكن أحدنا شديد الحرص عليه، ساعياً لتحقيقه.

ـ ومن أهم **طرق ووسائل تحصيل التوكل** الذي هو من أوصاف الإيمان:

١. أن نعلم أن الله تعالى هو الفاعل والمؤثر في كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، وأن الله هو الرب النافع والرافع الخافض والباسط والقابض والمعطي والمانع والهادي والحسيب والوكيل، وأن نتذكر ونتمثل هذه المعاني في كل حركاتنا وتصرفاتنا.

٢. أن نكثر من ذكر الله حتى يزداد تعلقنا بالله، ونحضر معه، ونتذكر احتياجنا إليه في كل أفعالنا وأحوالنا.

٣. ومما يعين على تَذَكُّر هذه المعاني قول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، فالإكثار من هذا الذكر مع تدبر معناه يحقق الإنسان بالتوكل ومعناه وحقيقته.

٤. ومما يُذَكِّر بمعنى التوكل قول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وإذا قال الإنسان هذا الذكر في الشدة أراه الله كفايته، فيزداد إيماناً ويقيناً بأن الله يكفيه ويتوكل به، فيتحقق بكمال التوكل، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۞ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤][(١)].

ـ والتوكل لا يعني ترك الأسباب، وإنما هو الاعتماد على الله والثقة به،

(١) وقد تحدثت عن فضل هذا الذكر وآثاره ضمن الكلام عن عبادة الذكر في التزكية العملية الجسدية.

والعلم بأنه هو الذي يرجع حصول كل شيء إلى مشيئته وقدرته، وهو الذي بيده كل شيء، وبيده تصريف كل شيء.

١. فإذا كان الأمر الذي تريده، سواء من أعمال الدنيا أو العبادة والآخرة؛ إذا كنت تملك فيه أسباباً خلقها الله، وأمرك بها فعليك أن تقوم بتلك الأسباب عملاً بأمر الله وحكمه، مع اعتمادك على الله فيها.

٢. وإذا كان الأمر الذي تريده فيه أسباب أباحها لك أن تستعملها، فيجوز أن تستعملها، وعليك أن تعتمد على الله، وتعتقد في كل حال أن الأسباب ليست هي التي لها الحول والتأثير والقوة والفعل والتغيير، وإنما ذلك كله راجع إلى الله سبحانه، فإذا لم توجد إرادة الله ومدده لا يمكن أن تؤثر الأسباب ولا أن ينتج عنها شيء أبداً.

٣. وإذا كان الأمر الذي نريده مشروعاً، لكنّا لا نجد سبباً موصلاً إليه؛ فليس لنا عندئذ إلا التوكل على الله واللجوء إليه، فيكون التوكل وحده عندئذ سبباً من أسباب تحصيل ذلك الأمر، كما أنه في الحالات السابقة يعتبر سبباً أيضاً مع الأسباب، لأنّا أُمِرْنا به معها.

ـ وقد يظن بعض الناس أن التوكل يعني ترك الأسباب، فنبهنا النبي ﷺ إلى أنهما يجتمعان، ولا يلغي أحدهما الآخر، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله: أربط ناقتي أم أتوكل؟ فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل»(١)، فأمره بالسبب مع التوكل.

ـ إن إقامة الأسباب الدنيوية والأخروية والعبادية مطلوب أمرنا الله به في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٧ عن أنس بن مالك ﷺ، وقال: غريب، وابن حبان رقم ٧٣١، عن عمرو بن أمية ﷺ.

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، النساء: ٧٧، النور: ٥٦، المزمل: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال: ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥]، وقد سأل الصحابةُ النبيَّ ﷺ قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل، قال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة»[1]، فهذه الأسباب وأمثالها قد أُمرنا بها، والمتوكل يعمل بها طاعة لله، وهو يرى أن المؤثر فيها هو الله تعالى، وأن الله هو الوكيل في إيجادها ونجاحها وإنجازها، فالسبب الذي يؤدي في الظاهر إلى النفع أو الضر لا ينفع ولا يضر إلا بالله، والسبب الذي يودي إلى العطاء أو المنع لا يعطي ولا يمنع إلا بالله، السبب الذي يؤدي إلى الهداية أو الضلال لا يهدي ولا يضل إلا بالله، والسبب الذي يؤدي إلى الرفعة أو الانخفاض لا يرفع ولا يخفض إلا بالله، والسبب الذي يؤدي إلى الجنة لا يوصل إليها إلا بالله، وهكذا.

وقد نبهنا النبي ﷺ إلى ذلك فبين لنا أن العمل ليس هو الذي يدخلنا الجنة، فقال: «لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال:

(١) أخرجه البخاري ٤٦٦٦ ومسلم ٢٦٤٧. وتمام الحديث كما في البخاري: عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» قالوا يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة»، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٦] الآية.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة»[1]، فالعمل واتخاذ السبب العبادي ليس هو المؤثر رغم أنه مطلوب، فالحديث نفسه أمرنا بالعمل فقال بعد ذلك كما في رواية للبخاري: «سددوا وقاربوا»[2]، وفي رواية للبخاري ومسلم قال في أول الحديث: «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله...»[3]، وليس مقصود النبي ﷺ أن يصرفنا عن العمل أو يقلل من شأنه، وإنما المقصود التنبيه إلى التوكل على الله عند العمل، والتنبيه إلى أن وجود العمل وثمرته وقبوله لا تكون إلا بفضل الله.

وكما أن العبادات مطلوبة ويجب معها التوكل على الله، كذلك من أعمال الدنيا ما هو مطلوب وواجب ويجب معه التوكل على الله، وكما أن التوكل في العبادات لا يعني تركها، كذلك فالتوكل على الله في طلب الرزق وأعمال الدنيا لا يعني تركها، إذا أوجبها الله أو ندب إليها أو أباحها[4].

ويجوز شرعاً أن يُنسب الأثر والنتيجة إلى العمل والأسباب، ما دام الإنسان يعلم ويعتقد ويؤمن بأن الله هو الوكيل، فيجوز أن يقول الإنسان: الطعام أشبعني، والدواء شفاني، وفلان قضى لي حاجتي، والرياضة قَوَّتني، والدراسة نجحتني، وهكذا، وكل ذلك باعتبار السبب، مع كون الاعتقاد

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٩٨ ومسلم رقم ٢٨١٦، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٩٨.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦١٠٢ عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم ٢٨١٦، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) فالواجب منها لا يجوز ترك العمل به، والمندوب منها قد يتركه الإنسان لواجب أكبر منه، والمباح يجوز للإنسان أن يتركه أو يفعله، وقد يتركه انشغالاً بالطاعة عنه، ولا حرج في ذلك، بل هو أنفع لصاحبه في الآخرة، والأولى بالمؤمن أن يؤثر الآخرة على الدنيا، ولا يأخذ من الدنيا إلا قدر ضرورته وحاجته وما أوجب الله عليه أو ندبه إليه.

صحيحاً، حتى لو كان غافلاً عن اعتقاده حين كلامه، لكنه مع غفلته عنه لو سألته لأجابك أن ذلك كله إلى الله.

أما من يعتقد أن هذه الأمور مؤثرة بذاتها، وأن الله تعالى لا دخل له ولا تأثير له فيها، فهذا اعتقاد باطل صاحبه في ضلال، حتى ولو لم يتلفظ بتلك الألفاظ.

والله تعالى قد نسب كثيراً من النتائج إلى مُسبِّباتها الظاهرة(١)، كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، فبسبب أعمالهم أُدخِلوا الجنة، والحديث السابق نفى في ظاهره أن يكون العمل هو الذي يُدخل الجنة، والجمع بين الآية والحديث أن العمل هو سبب متوقف على إرادة الله، ومن سنة الله تعالى أنه إذا وُجِد العمل بحسب شروطه التي طلبها الله؛ فإن الله يرتب عليه نتائجه، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فإذا وجد الإحسان ـ وهو العمل الموافق لشرع الله مع الإخلاص والمراقبة ـ فذلك سبب الرحمة، فيدخل بالرحمة التي اقترنت بالإحسان والعمل، لا بذات العمل، والعمل مظهر مقترن بالرحمة، فجاز نسبة النتيجة إليها من حيث الظاهر، وفي ذلك تنبيه إلى أن الأعمال وإن كانت لا تؤثر إلا بالله، فهي مطلوبة وعليها الحساب، والله تعالى لا يحرم العبد جهده وعمله، ولا يمنع عنه نتائج فعله وإن كان قادراً على ذلك، حتى لا يتهاون العبد بالتكاليف ويتركها، وحتى لا يظن أن لا قيمة للعمل ولا أهمية.

---

(١) مثال ذلك أن الله نسب الموت إلى سببه وهو ملك الموت فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١] ونسبه إليه وهو المسبِّب: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، ونسب الهداية إلى النبي ﷺ وهو سبب فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ونفاها عنه في آية أخرى، لأنها لا تكون إلا بالله، فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

ـ والتوكل باعتباره أمراً شرعياً وعملاً قلبياً أُمِرْنا به؛ فهو سبب من أسباب القرب إلى الله وأسباب حفظه ومحبته، كما بينا من قبل، كما هو سببٌ في تيسير الرزق وزوال الهم فيه، لما فيه من ثقة بالله واعتماد عليه، قال ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً»(١)، فالسبب موجود لكنه يسيرٌ وسهلٌ كرزق الطير، فهو لا يهتم ولا يغتم لأكثر من يومه، فإذا اعتمدتَ على الله ووَثِقْتَ به؛ وجدتَ من كرم الله وعطائه وإحسانه وكفايته ما لم يجده غيرك، وهذا أمر لا يختص بالرزق فحسب، بل كل الأسباب تصير سهلة يسيرة بسبب التوكل والتقوى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

ـ وإذا عمل الإنسان العمل الذي أمره الله به؛ فلا بد أن يتوجه بهذا العمل إلى الله وحده، فإنه إذا قصد بعمله غير الله؛ فإنه يكون كالذي لم يعمل أصلاً، فعمله في غير محله الصحيح، ولا ينتفع منه، بل يسأل ويحاسب لماذا توجهت لغير الله، وغير الله لا يستحق أن يعبد ولا يستحق أن يقصد في عبادة، فوجب تحقق القلب بالإخلاص لله، حتى لا يكون له عمل ولا عبادة إلا له سبحانه.

---

(١) أخرجه أحمد رقم ٢٠٥، والترمذي رقم ٢٣٤٤ وقال: حسن صحيح، وابن ماجة رقم ٤١٦٤، وابن حبان رقم ٧٣٠، والحاكم رقم ٧٨٩٤ وصحح إسناده، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعضهم لفظه: «وتروح بطاناً».

المبحث الثالث عشر

الإخلاص لله
وضده الرياء

إذا علم الإنسان أن الله هو وحده الذي يستحق أن يعبد، فكيف يعبد سواه، وكيف يقصد بعبادته غير الإله المعبود بحق؟ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وأنت تعلم وتؤمن بأن الله وحده هو الذي يستطيع أن ينفعك أو يضرك، فكيف تعمل عملاً تتوجه به لغيره؟ ولا أحد يملك ثوابك أو عقابك وجنتك أو نارك إلا الله.

وكيف تتوجه بالعمل إلى من لا يترتب على العمل له نفع، ولا يندفع به شر؟ وكيف ترجو بشيء من عملك نفعاً ممن لا يملك النفع؟

فلا بد لك أيها المؤمن أن تتفانى في طاعة مولاك حتى لا يخطر في بالك عمل لغيره ولا رياء، لأن مصالحك كلها عند الله، يملكها الله.

وما دمت مخلوقاً لله مملوكاً له، ولا يستحق أحد أن يحكم علي إلا هو؛ فكيف ألتفت إلى سواه، وكيف أفكر أن أعمل لغيره، أو أبحث عن رضى غيره، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

فاجعل حياتك أيها المؤمن كلها لربك، وفق حكم ربك، لا تقصد بها إرضاء نفسك وشهواتك فإنها لا تنفعك ولا تدفع عنك الضر والعذاب، ولا

تقصد بأعمالك إرضاء أحد من الخلق ولا موافقة أهوائهم؛ فذلك لا ينفعك ولا يحميك.

ومهما ظننت من نفسك أو من أحد من الخلق نفعاً أو دفعاً للضر؛ فإنما ذلك أوهام، لأن النفع والضر لا يجري من الخلق إلا بإذن الله وإرادته، قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

إذا انتهت الحياة الدنيوية فسوف ترى بيقين أن لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع ولا رافع ولا خافض إلا الله، فتذكر نهاية الحياة ليزول عنك وهم النفع والضر من الخلق، فلا تتوجه إليهم بعمل ولا تقصدهم في شيء.

ـ فلا بد أن تستحضر في قلبك نيتك عند كل عبادة أنها لله، ولا تكون نيتك إخلاصاً حتى تكون لله وحده، فلا ترجو معه سواه، بل ولا تنظر إلى سواه، ولا تنتظر من غيره خيراً ولا ثواباً، إذ لا نفع من عمل ترجو به غير الله، ولا تنال ثواب عمل إلا أن تكون نيتك فيه لله وحده، قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنية(٢)، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٣).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٦٦٩ والترمذي رقم ٢٥١٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وفي رواية: «بالنيات».

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٤، وأخرجه مختصراً رقم ١، ومسلم رقم ١٩٠٧، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

وعَنْ أبي مُوسَى عبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ الأَشعرِيِّ ﷺ قالَ: سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً ويقاتِلُ رِياءً، أَيُّ ذلِك في سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتَلَ لِتكُون كلِمةُ الله هِي الْعُلْيَا فهُوَ في سَبِيلِ الله»(١).

ـ ولقد أَمَرَنا الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، فقَالَ سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۞ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

وأعلمنا الله أنه لا يقبل منا إلا ما كان خالصاً، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

والنبي ﷺ ينبهنا إلى أننا إذا أردنا أن ننال الأجر والقبول لأعمالنا فعلينا أن نحتسب أجرنا على الله في أعمالنا، لا نرجو أجراً ولا ثناءً من الخلق، قال ﷺ: «من يقم ليلة القدر(٢) إيماناً(٣) واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٤)، وقال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٥)، وقال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٧٠٢٠ ومسلم ١٩٠٤، وفي رواية للبخاري رقم ١٢٣ ومسلم رقم ١٩٠٤ أن رجلاً قال: «فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية»، وفي رواية للبخاري رقم ٢٦٥٥ ومسلم رقم ١٩٠٤ أن رجلاً قال: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟»...

(٢) أي يحييها تقرباً إلى الله بالصلاة وغيرها من العبادات.

(٣) أي مصدقاً ومؤمناً بأنها حق.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٣٥ ومسلم رقم ٧٦٠ عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٣٨ ومسلم رقم ٧٥٩ عن أبي هريرة ﷺ.

«من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً[1]، وكان معه حتى يصلى عليها، ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط[2] مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط»[3].

كيف نتحقق بالإخلاص بلا تعب:

ـ وإذا فهم الإنسان أنه محكوم لله، وجعل قصده في الحياة أن يقوم بأحكام الله فإن الإخلاص يتولد تلقائياً مع كل أعماله، فإذا أراد أن يقوم بعمل قال لنفسه: هل يريده الله؟

فإن كان الله يريده منه عَمِلَه، فلم يعمله إلا لأجل الله، وإلا لأن الله يريده، فنيته في الفعل مرضاةُ الله وطاعته.

وإن كان لا يريده الله منه أو كان ينهاه عنه؛ لم يعمله، فلم يتركه إلا لله، وإلا لأن الله يريد منه تركَه، فنيته في الترك أيضاً مرضاةُ الله وطاعته،

وإن كان قد أباحه الله له وخيَّره في أن يفعله، فإنه لم يعمله إلا بعد أن علم إذن الله فيه، فكان راجعاً إلى الله فيه، ولم يكن متبعاً هواه ولا هوى غيره، بل كان متبعاً في ذلك رضوان الله، وراجياً ألا يخالفه.

ومهما أرادت نفسه منه أن يعمل عملاً أو أراد أحد من الناس منه عملاً؛ لم يتحرك إليه إلا بعد أن يعلم أمر الله فيه أو نهيه أو إباحته، فبرجوعه إلى الله عند كل عمل؛ يكون مخلصاً لأنه لا يرجو نفعاً من عمل لا يريده الله، فقد جعل كله لله وكل أعماله لله، وهذا معنى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛

---

(١) أي لا يقصد مجاملة الناس ومكافأتهم، وإنما يقصد الأجر من الله.

(٢) القيراط: يطلق على الشيء القليل والكثير، وقد يراد به الجزء من الشيء.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٧ عن أبي هريرة ﷺ.

فهجرته إلى الله ورسوله»، وهذا هو المتحقق بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فليست بعض أعماله لله، بل كل أعماله وكل حياته لله وحده.

ـ إذا أراد الإنسان أن يعمل عملاً أو يؤدي عبادة فعليه أن يجتهد في استحضار النية لله عند بداية عمله، وعليه أن يخلص فيها لله فلا يكون له قصد إلى شيء غير الله، فلا يقصد إلى أن يراه أحد من الخلق، ولا يرغب في أن يمدحه أحد، ولا يرجو عطاءً من أحد، ولا يفعلها لأجل دنيا أو جاه أو تحصيل مال أو لتحبيب الخلق به، ولا يفعلها لينجو من مذمة أحد من الخلق.

ويمكن تحقيق ذلك بأن يتذكر أن غير الله لا ينفعه إذا توجه إليه بشيء من الأعمال والعبادات.

وحقيقة النية عندئذ تكون في الدافع الحقيقي الذي يدفع الإنسان إلى العمل، وهي إرادته، هل هو مرضاة الله وطاعته والرغبة في جنته، أم لدنيا، أم ليعظمه الناس، أو ليُرضِي الناسَ نفاقاً، أم لغير ذلك.

وقد بيّن النبي ﷺ إلى أن الدافع إذا كان خالصاً في طاعة الله؛ فإنه يكون سبباً في ترقي المسلم، ويكون الأجر على أكمله وأتمه، قال ﷺ: «إِنَّك لن تُخَلَّفَ **فتعْمَل عَمَلاً تَبْتغِي بِهِ وَجْهَ الله إلاَّ ازْددْتَ بِهِ دَرجةً ورِفعةً**»[1]، فالمسلم ينتفع ويترقى بعمله حينما يكون مخلصاً فيه لوجه الله، وقال ﷺ: «صَلاَةُ الرَّجُلِ في جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتى المَسْجِد **لا يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ، لا يَنْهَزُهُ**[2] **إلاَّ**

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٧٢١ ومسلم رقم ١٦٢٨، عن سعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ ﷺ.
(٢) أي لا يدفعه إليها.

الصَّلاةُ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها درجةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دخل المَسْجِدَ كانَ في الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ التي تحبِسُهُ، وَالملائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدكُمْ ما دام في مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ، يقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مالَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»(١). فقوله ﷺ: «لا يريد إلا الصلاة، لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاة»: أي لا قصد له، ولا يحرِّكه ويدفعه ويبعثه ويُخرِجُهُ ويُنْهِضُهُ ويُنَشِّطُه إلا أنه يريد طاعة الله بصلاته، فهو لم يخرج لأجل غرض أو تجارةٍ أو للقاءٍ وموعد، ولم تصادفه صلاة الجماعة فجعلها تبعاً، بل خرج للصلاة أصلاً، فكان له هذا الأجر العظيم، وفي هذا تنبيه إلى أن على الإنسان أن يعتني بالباعث والدافع إلى العمل، فيخلص فيه لله، ولا يجعله مشتركاً، ولا ينوي فيه شيئاً آخر، كما قال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، **من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

- إن القصد السليم والنية الطيبة والإخلاص لله لا يبرر أن يكون العمل على خلاف أمر الله، فيجب على المسلم أن يكون عمله موافقاً لشرع الله، فقد جاءت عشرات النصوص تأمرنا بطاعة الله ورسوله ﷺ وعدم مخالفته كقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]، ويجب أن يكون المسلم مع موافقته للشرع مخلصاً في أعماله لله، وقد ذكرنا الأدلة على الأمر بالإخلاص، وقد جاء التنبيه إلى الجمع بين الإخلاص والموافقة في قوله ﷺ:

(١) أخرجه مسلم رقم ٦٤٩ ونحوه البخاري رقم ٤٦٥ و٢٠١٣، عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٥ عن أبي هريرة ﷺ.

«إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعمالِكُمْ»(١)، فيكون العمل كما يريد الله وكما شرع، ويكون القلب قاصداً وجه الله، مُريداً لفضله وأجره ورضوانه، راجياً لقبوله، خائفاً منه، متوكلاً عليه.

لكن الإنسان إذا أجبر على عمل مخالف لأمر الله وأكره عليه؛ فإن الله يحاسبه على نيته، ويعفو عما صدر عنه من إكراه، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال ﷺ: «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبيْداءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ»، فقَالَتْ عائشة رضي الله عنها: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَى نِيَّاتِهِمْ»(٢).

ـ من كرم الله تعالى على العبد المؤمن أنه إذا كان صادقاً في نيته راغباً في الخير والحق، لكنه حال بينه وبين فعل الخير عذر أو أمر خارج عن إرادته؛ فإن الله تعالى يكتب له أجر العمل كأنما عمله، وعلامة الصدق في ذلك أن يكون بحيث لو قَدِر على العمل لعَمِلَه، فعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيِّ رضِيَ الله عنْهُما قَالَ: كُنَّا مَع النَّبِيِّ ﷺ في غَزَاة فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي رِوايَةِ: «إِلاَّ شَركُوكُمْ فِي الأَجْرِ»(٣)، فانظر كيف بين أنهم يشاركون إخوانهم العاملين المجاهدين في الأجر، وكأنهم معهم، وفي قوله ﷺ: «إلا كانوا معكم»، تعبير بليغ في أنهم

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٠١٢، عن عائشة رضي الله عنها، وبمعناه عند مسلم رقم ٢٨٨٤.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٩١١ ونحوه عند البخاري رقم ٤١٦١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه أن الغزوة هي تبوك، وقال: حبسهم العذر، بدل المرض.

يأخذون من الأجر كما لو كانوا معهم، فهم لقوة نيتهم كأنهم معهم فعلاً.

وكما أن من نوى الخير بصدق ولم يقدر عليه كتب له أجره، كذلك من نوى الشر بعزم، بحيث لو قدر على الشر والمعصية لفعلها؛ فإنه يكتب عليه إثم ذلك وكأنه فعل السيئة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فرتب العذاب على مجرد الإرادة.

وعن أبي بَكْرَةَ ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، فقلت: يا رسول الله؛ هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»(١).

وعن أبي كبشة الأنماري ﷺ أن النبي ﷺ قال(٢): «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً؛ **فهو صادق النية**، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته(٣)، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣١ ومسلم رقم ٢٨٨٨.

(٢) بداية الحديث: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال:...».

(٣) «فهو نيته»: أي إنه بنِيَّتِه يُعد عاملًا لما نوى، فقامت النية مقام العمل لمن لم يقدر على العمل.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ونحوه عند أحمد في مسنده ٤/ ٢٣١.

ـ ومن كرم الله تعالى أن من صدق في نيته وباشر العمل وبدأ به ثم حالَ بينه وبين إتمامه عذر أو شيء خارج عن إرادته؛ فإن الله تعالى يكتب له تمام الأجر، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٠]، فهذا الذي أدركه الموت قطع عمله أمر ليس في يده، لكن نيته إتمام عمله وهجرته، فكتب الله أجره، وكذلك بينت بداية الآية أن العمل الخالص كالهجرة في سبيل الله سبب في تيسير أمور الدنيا وتوسعتها وتذليلها للمخلصين.

ـ فلو أنك نويت بصدق بلوغ مقام الإحسان والصديقية، وحاولت قدر طاقتك؛ كتبك الله في أهل هذه الرتبة.

ولو أنك لم تكن قادراً على الجهاد ونويت الجهاد في سبيل الله كتب الله لك أجره، قال ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه[(١)] مات على شعبة من نفاق»[(٢)]، وقال ﷺ: «من سأل اللهَ الشهادةَ بصدق؛ بَلَّغَه اللهُ منازلَ الشهداء، وإن مات على فراشه»[(٣)].

ولو أنك نويت بصدق قيام الليل، ثم لم تستيقظ، ولو قمت لصلَّيْت؛ كتب الله لك قيامه، قال ﷺ: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من

---

(١) أي ولم يحدث نفسه بالغزو.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٩١٠، عن أبي هريرة ﷺ، ثم ذكر الإمام مسلم أن عبد الله بن المبارك قال: «فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ»، أقول: وليس مقصوده أن يخصص الحديث ويخصص معناه بعهد رسول الله ﷺ، فالحديث عام لا يجوز تخصيصه إلا بدليل، وإنما مراد ابن المبارك رحمه الله أن يبين أنه محمول على الحالة التي يكون الجهاد فيها واجباً، كما كان الأمر في زمن النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٩٠٩ عن سهل بن حنيف ﷺ، وبمعناه رقم ١٩٠٨ عن أنس ﷺ.

الليل، فغلبته عينه حتى يصبح؛ كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه»(١).

ـ والمسلم يستطيع أن يأخذ أجراً زائداً على العمل الواحد، فيعمل العمل نفسه وبالجهد نفسه، لكنه تزداد حسناته وأجره، وذلك من خلال تكثير النيات الطيبة في العمل الواحد، ويدل على هذا قوله ﷺ: «وإنما لكل امرئ ما نوى».

فقد يصلي الركعتين من النافلة بعد الوضوء ودخول المسجد؛ فينوي بهما سنة دخول المسجد، وسنة الوضوء، وسنة التوبة من ذنوبه، فيكون أجره أكثر من أجر من نوى فيها سنة دخول المسجد فقط.

وقد يقضي حاجة أخ مسلم، فإذا قضاها خجلاً لم يكن له أجر الخدمة وقد يكون له أجر الحياء من أخيه، وإن قضاها لله كان له أجر، وإن نوى مع ذلك التواضع لأخيه المسلم طاعة لله زاد أجره، وإن نوى إضافة إلى ذلك تقوية المحبة بينه وبين أخيه المسلم طاعة لله زاد أجره، وإن نوى مع ذلك أن يعلِّم بعض المسلمين حب الخدمة زاد أجره، والعمل الذي عمله واحد، لكنه تفاوت بقدر ما نوى.

ـ والمسلم يستطيع أن يأخذ أجراً على معاملاته وأعماله العادية المباحة، كطلب الرزق وأكل الطعام والتجمُّل باللباس وملاعبة الأولاد ومداعبة الزوجة ووضع اللقمة في فمها؛ إذا نوى فيها نية صحيحة خالصة لله، فتتحول العادة إلى عبادة بوجود النية الطيبة فيها، وبإدراكه أن المباحات الدنيوية هي وسائل لتعين على طاعة الله، فكلُّ دنياه يسعى بها لآخرته، ومن كان يعمل هذه الأعمال تعلُّقاً بالدنيا وشهواتها فقصده الدنيا، ولا أجر له فيها.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه النسائي رقم ١٤٥٩، عن أبي الدرداء ﷺ، وابن خزيمة في صحيحه رقم ١١٧٢، والحاكم في مستدركه رقم ١١٧٠، وله شاهد عند أبي داود رقم ١٣١٤.

فعن سعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ ﷺ قال: «عَادَنِي النبيُّ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الْوَداعِ مِنْ مرض أشْفَيْتُ منه على الموت، فَقُلْتُ: يا رسُول الله؛ بلغَ بِي مِن الْوجعِ مَا تَرى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يرثُنِي إِلاَّ ابْنةٌ لِي واحدة، أَفأَتصدَّق بثُلُثَيْ مالِي؟ قَالَ: لا، قال: فأتصدق بشَطره؟ قالَ: لا، قال: الثُّلُثُ يا سعد والثُّلُثُ كثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذرَ وَرثتك أغنِياءَ خَيْرٌ مِن أَنْ تذرهُمْ عالَةً يَتكفَّفُونَ النَّاس، وَلَسْتَ بنافقٍ **نَفَقةً تَبْتغِي بِهَا وجْهَ الله إِلاَّ آجركَ الله بها حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعلُها في فِي امْرَأَتكَ**[1]، قُلْت: يَا رَسُولَ الله أُخَلَّفَ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: إِنَّك لن تُخَلَّفَ فتعْمَل عَمَلاً تَبْتغِي بِهِ وَجْهَ الله إلاَّ ازْددْتَ بِهِ دَرجةً ورِفعةً، ولعَلَّك أَنْ تُخلَّف حَتَى ينْتفعَ بكَ أَقَوامٌ، وَيُضَرَّ بك آخرُونَ»[2]، فما يجعله المسلم في فم امرأته يؤجر عليه إذا كان يبتغي به وجه الله، ومثله كل فعل مباح دخلته النية الخالصة الطيبة التي ترضي الله.

ـ الحد الأدنى المطلوب من الإخلاص:

١. **الإخلاص في الإيمان**: فمن آمن لغير وجه الله، قاصداً إرضاء أحد من الخلق؛ فهو غير مؤمن حقيقة، لأنه لم يَعُدَّ عظمة الله وصفاته موجبة للإيمان به، فإمّا أنه لم يعرف الله بحق، وإما أنه عرفه وأعرض عنه، فالله هين في نظره، والخلق الذين يجاملهم ويرضيهم أهم عنده من الله، فهذا ليس بمؤمن ولا بمقدر لله قدره، فهو كافر، وإعلانه الإيمان إنما هو تظاهر بالإيمان، ومن تظاهر بالإيمان ويقصد غير الله فهو المنافق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) «في في امرأتك»: أي اللقمة التي تضعها في فم امرأتك.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٧٢١ ومسلم رقم ١٦٢٨، وتتمة الحديث: «اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحابي هجْرتَهُم، وَلاَ ترُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهم، لَكن الْبائسُ سعْدُ بْنُ خولَةَ، يرْثى لَهُ رسولُ الله ﷺ أَن توفي بمكَّةَ».

﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، فلا بد أن يكون الدين والتدين لله خالصاً.

ولما كانت شهادة التوحيد هي مظهر إعلان التدين، فلا بد أن تكون خالصة حتى تقبل، ويصير الإنسان بها مستحقاً لدخول الجنة، قال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة»(١).

٢. **الإخلاص في العبادات؛ فرضها ونفلها**: قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، والعبادة ـ سواءً كانت فرضاً أو نفلاً ـ إذا قَصد الإنسان بها غير الله؛ فما عملها وما توجه بها إلا لغير الله، فكان كالعابد لغير الله، وهذا وصف المنافقين الذين وعدهم الله بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

٣. **الإخلاص في ترك المعاصي**: حتى ينال الإنسان أجره في ترك المعصية؛ فلا بد أن يكون مخلصاً في تركها لله، فلو ترك معصية لأنه لم يقدر عليها، ولو قدر عليها لفعلها، فهذا غير مخلص في تركه وغير مأجور، بل ربما يكون مأزوراً إذا كان عازماً بإرادة جازمة على فعلها، ثم لم يفعلها لأنه لم يقدر على فعلها، أما إذا حدثته نفسه بأن يعملها وهمَّت بذلك، ثم تركها لأجل الله، طاعة له وامتثالاً لأمره، أو خوفاً منه، أو رغبة بما عنده، أو إجلالاً له، فعندئذ يكتب الله له ذلك حسنة لأنه رجع إلى الصواب والحق، ودليل ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة»(٢)، وقد

---

(١) حديث صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه ابن حبان رقم ٢٠٠، ونحوه عند أحمد في المسند رقم ٢٢١١٣.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦١٢٦، ومسلم رقم ١٣١، والحديث بتمامه: عن ابن عباس رضي الله =

جاء التصريح في رواية أخرى بأن الترك الذي يكتب حسنة هو الترك الذي يكون لله، فقال: «وإن تركها **من أجلي** فاكتبوها له حسنة»(١).

ومن ترك شيئاً من المعاصي خجلاً من الخلق أو مداراة لهم، أو لأنه لا يشتهي تلك المعصية؛ فإنه لا يكون بذلك عابداً لله في تركه ولا مخلصاً، فلا بد أن يستحضر المسلم في كل معصية أنه إنما يتركها لله وطاعة له؛ فمثلاً يترك الخمر والزنا والسرقة لأن الله حرمها، لا خوفاً من أضرارها وعقاب البشر عليها، ويترك القتل خوفاً من الله ومن عقابه، لا خوفاً من أن يُقتل بذلك أو يُسجن، ويترك المكروهات تعظيماً لحكم الله، لا خوفاً من نقصان مكانته عند الناس أو ذمِّهم له، وهكذا.

ولذلك فالمسلم حينما يقرأ آية أو حديثاً ينهى عن معصية كبيرة أو صغيرة؛ يستحضر في نفسه أنه ينوي تركها لأجل الله، وهذا يقوي في نفسه كُرْه المعصية والإعراض عنها، أما من لم يفعل ذلك فإنه قد يضعف حينما تتاح له الشهوة والمعصية.

وكذلك الشأن في العبادة التي تتحقق بالترك لشيء أو بالإمساك عن فعل؛ فلا بد فيها من النية لله حتى تكون عبادة، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي عن الصوم: «يترك طعامه وشراب وشهوته **من أجلي**»(٢)، فلو أن إنساناً

= عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة».

(١) أخرجه البخاري رقم ٧٠٦٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٧٩٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أمسك عن الطعام طول اليوم، ولم ينو الصيام لله، أو أراد التنحيف لسِمْنَته، أو لم يجد طعاماً وشراباً يأكله؛ فلا يكون ذلك من عبادة الصيام، ولا يأخذ فيه أجر الصائم.

٤ . **أما المعاملات**: فلا ينبغي للمسلم أن يعمل شيئاً يقصد به غير وجه الله حتى المعاملات، كالبيع والشراء والزواج والخدمة وغير ذلك، لكنه لا يشترط وجوباً أن يستحضر عند فعلها أنها لله، فإن كان غافلاً عن الإخلاص فيها لله؛ لا يكون مقصراً، ويشترط فيها أن لا يكون قصده سيئاً فيها، ولا شك أنه إن استحضر في خاطره أنها لله فذلك أنفع له وأقوى في صلته وعلاقته مع الله.

فالمسلم حينما يتزوج قد لا ينتبه إلى أن زواجه لله، لكنه لما كان في قرارة نفسه يبحث عن مرضاة الله وطاعته؛ تجده في نفسه يقصد من هذا الزواج أن يعف نفسه عن الحرام والزنا ويستعين به على غض البصر، فرغم غياب النية عند الزواج ورغم التفاته إلى شهوته؛ فإنه لم يلتفت إليها على هذا الوجه إلا لأن الله أباحه، ألا تراه ترك الزنا وترك طريق الشهوات واختار هذا الطريق المباح الذي أذن الله به دون غيره، فالنية الصالحة موجودة في قرارة نفسه، وفي أعماق عقله[1].

وبعض المعاملات قد جعلها الله عبادات تظهر فيها شعائر العبودية والطاعة، فلا بد من وضوح النية فيها؛ كالنذر والذبح والدعوة والجهاد ونحوها، ولا بد من التوجه بها إلى الله.

٥ . **أما الأخلاق** وما يظهر من آثارها في المعاملات من كرم وتواضع ولين وصدق ووفاء وعدل وغير ذلك؛ فقد يحرص عليها المؤمن والكافر لجمالها، ولما

---

(١) أو تقول: النية موجودة فيما يسميه علماء النفس اليوم: العقل اللاواعي أو العقل الباطن.

فيها من مصالح تترتب عليها، فإذا قصد الإنسان منها تحقيق مصالح دنيوية، فهي دنيا، لا أجر له فيها ولا نفع، لأن الله تعالى بين أن من يريد الدنيا تحبط أعماله، قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وأما إذا كان الإنسان قاصداً آخرتَه ومرضاةَ ربِّه في الجملة؛ فإن هذه الأخلاق تقع موقعاً صحيحاً ينتفع منه، لأنه لم يلتفت إليها لدنيا، وهو يحرص عليها حتى لو لم تحقق له مصلحة دنيوية، لذلك فإنها تكون أثبت عنده من الكافر، لأن دافعها ديني أخروي، وليس دنيوياً قد يزول بزوال المصلحة الدنيوية.

ولأجل ذلك فإن المسلم ينتفع من أخلاقه دون الكافر فإنها تكون حابطة ساقطة كما بينت الآية.

وحتى يكون المسلم مستفيداً من أخلاقه مأجوراً عليها؛ فلا بد أن ينتفي عنده سوءُ الطَّوِيَّة والقصدُ السيء والفاسد من أخلاقه ومظاهرها، فلو أنه تخلق للتوصل إلى سمعة أو جاه أو مدح أو مال أو غيره، فقد طلب بخلقه الدنيا، فلا يكون له فيه أجر، بل يأثم بقدر سوء القصد الذي قصده في أخلاقه وأعماله المبنية عليها.

فهذا الحد الأدنى من النية والإخلاص الذي ينبغي أن يكون عند المسلم.

ضد الإخلاص: الرياء

حينما تصلي ركعتي السنة في المسجد فتستغرق معك ثلاث دقائق، وتصليها في البيت فتستغرق معك دقيقتين؛ هل تسأل نفسك لمن تتقرب بهذه الدقيقة الزائدة.

حينما تزور مريضاً؛ هل تسأل نفسك: تزوره طاعة لله وقياماً بحق المسلم، أم تزوره خوفاً من أن يلومك لماذا لم تَعُدْه في مرضه.

حينما تطلب علماً شرعياً؛ هل تسأل نفسك: تطلبه لأجل الرزق، أم لأجل الجاه، أم تقرباً إلى الله وتعرفاً إلى ما أمرك به، وحرصاً على هداية خلق الله.

العمل إن لم يكن لله، كان لغير الله، فكان رياءاً وشركاً خفياً، وكذلك ترك العمل إما أن يكون لله، وإما أن يكون لخلقه.

والذي يعمل الأعمال الصالحة لأجل مدح الناس أو نوال الجاه عندهم أو طلباً لمصلحة دنيوية؛ فعمله مردود لا قيمة له، ولا يعد صالحاً، ولا يؤهله لدخول الجنة، بل تكون نيته الباطلة سبباً في دخوله النار، فهو سيُحاسَب على كبيرة الرياء وقصدِ الدنيا والخلقِ في عمله، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّم عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ[١] يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

---

(١) عَرْفُ الجنة: أي ريحها، وهو كناية عن عدم دخول الجنة وعدم القرب منها، فحتى رائحتها لا يمكن أن يشمَّها.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٨٤٣٨ وأبو داود ٣٦٦٤ وابن حبان ٧٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضاً مِن عَرَض الدنيا؟ فقال: «لا أجر له»، فقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ، فقال له الثالثة، فقال له: «لا أجر له»(١).

ـ لقد حذرنا الله تعالى ورسوله ﷺ من أن نعمل العمل ليرانا الناس، وأخبرنا الله تعالى أن هذا الرياء سبب في بطلان العمل، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالآية تخبرنا بأن من المُسَلَّمات أن الذي ينفق المال ليراه الناس تبطل صدقته ولا أجر له فيها، لذلك شبه الله بها في البطلان من يتصدق ثم يؤذي من تَصدَّق عليهم بأن يذكر فضله عليهم في صدقته.

وكيف للإنسان أن يعمل لأجل الناس، والناس لا يملكون ثواباً ولا يدفعون عقاباً، ولا يملكون جنة ولا ناراً؟ فإذا جاءك خاطر لتعمل عملاً لأجل الناس وإرضائهم وأخذ النفع منهم؛ فتذكر هذه الحقائق، حتى لا يبقى لك حرص إلا على العمل لله، طلباً لمرضاته وفضله.

والخلق كلهم فقراء، ومن طلب من الخلقِ الفقراءِ ثواباً وظنهم أنهم يفيدون أو ينفعون؛ وَكَلَه الله إليهم فلن ينفعوه، وإذا طلب مدحهم وثوابهم مع الله؛ فكأنما جعلهم يعادلون الله، فالله تعالى لا يقبل ذلك، ويكله إلى هؤلاء الذي جعلهم كالشركاء لله، فلينفعوه إن كانوا ينفعون، قال رَسُولَ الله ﷺ: «قَالَ الله

---

(١) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٢٥١٦ والحاكم مختصراً رقم ٢٤٣٦ وصحح إسناده.

تعَالى: أَنَا أغْنى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، منْ عَمِلَ عَمَلاً أشْركَ فيهِ مَعي غَيْرِي؛ تَركْتُهُ وشِرْكَهُ»(١)، ولن ينفعهم أحد من دون الله، قال تعالى: ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠١].

ـ حالات مَرَضِيَّة وعلاجاتها:

١. كثير من الناس يأتيهم خاطر أو وسواس من الشيطان وَهُمْ في العبادة من صلاة أو صيام أو تعليم؛ فيوسوس إلى أحدهم بأنك لست مخلصاً، وأنك تعمل العمل لأجل الناس، فإذا جاء هذا الخاطر والوسواس فإنما يريد به الشيطان أن يشوش على الإنسان حضوره في عبادته، كما يريد أن يوهمه بأن عمله لغير الله فلا فائدة منه، إذن فليقطع عمله وليتركه، وعلاج ذلك: أن يخالف مراد الشيطان فيبقى في عمله ولا يتركه، وليحرص على حضوره وخشوعه ولا يلتفت إلى هذا الخاطر، ويستطيع أن يدفع هذا الخاطر بسهولة إذا تذكر الدافع إلى العبادة التي يقوم بها، فيتذكر نيته الأولى فيها، فما دام قد تحرك إليها لأجل الله وطاعة لله، فما يخطر في باله وما يوسوس به الشيطان إذن غير صحيح، وإنما هو تشويش وكذب وتوهيم.

٢. وإذا جاءك خاطر بأنك تعمل لأجل الناس، ووجدت هذا الخاطر حقيقياً صادقاً، إذ وجدت في نفسك ميلاً إلى معرفة الناس بعملك، ووجدت في نفسك رغبة في مدحهم، ووجدت في نفسك فرحاً برؤية عملك، فقد دخل الرياء إليك، وصار في قلبك نظر إلى الخلق، فعليك أن تخرج ذلك من قلبك، وإخراجه سهل أيضاً، وإنما يكون بأن تُذَكِّر نفسك بأن الذين يرونك وتحب نظرهم ومدحهم؛ لن ينفعوك ولا يدفعون عنك ضراً، ولا يملكون جنة ولا

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٥، عن أبي هريرة ﷺ.

يحجبون عنك ناراً، فلِمَ تفرح بهم؟ ولِمَ تنظر إليهم؟ فاجعل نظرك كله إلى الله الذي ينفعك ويملك ثوابك وجنتك، وافرح بنظره إليك، واستغن به وبنظره عن نظر سواه، وبهذا تكون قد رجعت من الرياء إلى الإخلاص، وصححت نيتك، وأزلت ما دخل عليك من مرض قلبي وإيهام شيطاني.

٣. وكذلك إذا جاءك خاطر أو وسواس يقول لك: ما أحسنَ عملَك وما أخلصَه؛ فإنما يريد الشيطان به أن يُدخِل عليك العُجْبَ والغُرور، فتذكر أن عملك إن كان حسناً فهو من فضل الله، فاشكر الله، ولا تلتفت إلى ما يثيره في نفسك من عُجْب وغرور ونشوة وفرح بالنفس والعمل، قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فأمرنا أن نفرح بفضل الله وبرحمته، لا بأنفسنا وأعمالنا، فقد نهانا عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، فلا يجوز الفرح بأعمالك، من حيث أنها صدرت منك، وإنما يجوز الفرح بها من حيث هي توفيق الله وفضله عليك، فيكون فرحُك بالله الذي مَنَّ عليك بها.

المبحث الرابع عشر

العبودية لله
والذلة والافتقار والتواضع

إذا آمن الإنسان وعمل بأحكام الله من عبادات ومعاملات وأخلاق، مع وجود الأحوال القلبية السليمة التي بيناها؛ فقد بدأ يتحقق بالعبودية والطاعة على وجهها المطلوب.

والعبادة والعبودية لا يستحق أحد أن نتوجه بها إليه إلا الخالق، الذي خلق كل شيء، المالك لكل شيء، المدبر لكل شيء، الذي لا يماثله أحد، فلا يستحق معه هذه العبادة غيره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وغير الله لا يستطيع أن يفعل لك شيئاً مما ذكرته الآية، فكيف نُسوِّي غيره به.

وفي مئات الآيات يذكرنا الله تعالى أنه هو الرب المتصرف الذي يفعل أشياء لا يقدر عليها غيره، لأجل ذلك فهو الإله الذي نعبده وحده دون غيره، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣][1]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ

---

(١) واقرأ الآيات التي بعدها: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٤-٦].

كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢][(١)]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٦٤] فلأنه الرب وحده؛ وجب أن نعبده وحده ونتخذه إلهاً وحده.

والعبادة لا تقتصر على أعمال ظاهرة وأقوال؛ بل فيها معنى قلبي هو الذي نسميه العبودية، ولا يكفي أن يقوم الإنسان بالعبادات الظاهرة من غير تحقق بمعنى العبودية فيها لله، ولا يكفي أن يستشعر معنى عبوديته في قلبه دون أن يُصدِّق ذلك في ظاهره بإقامة الطاعات والعبادات الظاهرة.

فكل عبادة يجب أن يرافقها معنى العبودية لله في القلب، وكلما ازداد المسلم إيماناً وقرباً وصلاحاً؛ استشعر معاني العبودية في كل وقت.

ومن معاني العبودية إذعانُ العبدِ لله، ورضاه بطاعته، وتواضعُه لله، وذلتُه له، وافتقارُه إليه، واضطرارُه إليه، وتمسكنُه بين يديه سبحانه، واستشعارُ العبدِ

(١) واقرأ الآيات التي قبلها كيف يخبرنا الله عن نفسه أنه يفعل أشياء يقدر عليها ولا يقدر عليها غيره، فيختم بالنتيجة المترتبة على ذلك أنه لا يجوز أن يُعْبَدَ غيرُه، وهذه الآيات هي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ٩٥-١٠٢].

ضعفَ نفسِه وحاجتَه إلى مددِ القوةِ من الله، ومن عبوديته تضرُّعُه إلى الله، وأن يَتَذَكَّرَ جهلَه وحاجتَه إلى التعليم والهداية من الله.

ومن معاني العبودية شعور العبد بقدرة ربه عليه؛ فيخاف منه، وشعوره بقدرة ربه على الإحسان إليه ورحمته؛ فيحبه.

فلا تكون العبودية لله صحيحة مالم تجتمع مع الحب والخوف، لأنه إن أطاع الله مع كُرْهٍ له؛ لم يكن عارفاً بقدره، ولأنه إن أطاعه مع استغناء عنه وعدم خوف منه؛ لم يكن عارفاً بقدره ولا ذليلاً له، بل يكون مستكبراً في نفسه عليه، والكِبْر ضد العبودية.

فالعبد يخضع لإلهه، ويسمع ويطيع، ويذل وينكسر، ويحب ويرغب، ويخاف ويرهب.

وخلاصة معاني العبودية لله تجتمع في ثلاثة معانٍ: الطاعة لله، والذلة والانكسار لله، والحب لله تعالى.

فكيف تكون عبداً لله تعالى إذا لم تكن تطيعه، وكيف تدعي أنك عبد لله وأنت لا تذل له ولا تنكسر ولا تتصاغر أمام عظمته وكبريائه وقدرته وجلاله، وكيف تدعي أنك عبد الله وأنت لا تحبه، وهو الذي أحسن إليك في كل شيء وهو الذي خلقك وهو الذي أعطاك قوتك وحواسك وقلبك وقدراتك وعقلك وخلق لك كل شيء، وحبك لله منه ما هو حب ناشيء عن التعظيم والتقدير والإجلال، ومنه ما هو ناشيء عن النظر إلى بره وإحسانه ورحمته بك.

ـ والله كما أمرنا بالعبادة؛ أمرنا بجميع ما تتضمنه من معاني العبودية التي يجب أن يتحقق بها الإنسان ويتذكرها:

أيها العبد: كن مستسلماً:

سَلِّم لله تعالى واستسلم[1]، لا تعارض شيئاً من كلامه أو حكماً من أحكامه، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وعدم التسليم نوع من الكبر، نجده في كثير من الناس، فكثير منهم يناقش الله في أحكامه، وكأنه يرى عقله وفكره وتدبيره يساوي علم الله وحكمته وتدبيره، بل يظن نفسه أفهم من الله، يرجح قولاً غير قول الله على قول الله تعالى، يفعل ذلك وكأنه لم يصنع شيئاً، لم يعرف عظمة الله ولا عرف قدره ولا أحبه ولا خاف منه، ولا ذاق العبودية التي خلق لها، والتي هي وصفه الطبيعي في مقابل ألوهية الله وربوبيته.

فكان جهله بالله ونقص معرفته بإحسان الله وعظمته وأسمائه وصفاته؛ سبباً في عدم التعظيم لقدره، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧]، فخرجوا بذلك عن عبوديتهم إذ لم يعرفوا ألوهية ربهم وربوبيته، وظهر المرض القلبي على ظواهرهم، بالاعتراض والعصيان والتخلف عن كثير من الطاعات.

وهذا الذي وقع فيه الشيطان، فهل طُرِد إبليس من رحمة الله إلا لعدم تسليمه لله، فعارض الله وناقشه، فكان بذلك مستكبراً عن العبودية، فأذلَّه الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١-١٣].

---

(١) وقد سبق الكلام عن التسليم من قبل.

ولم يكن إبليس بمعصيته مجرد عاص، بل كان متكبراً مغروراً في باطنه أيضاً، ولو كانت المعصية ناشئة عن خطإ أو مجرد شهوة، وأعقبتها التوبة والاعتراف بالخطأ؛ لكان في محل الغفران، لكن مرض قلبه كان كبيراً إلى درجة أن يناقش ربه، ولا يسلِّم لأمره، فوصل إلى حد الطرد من رحمة الله واستحق اللعن، فلم يعد له سبيل إلى التوبة والطاعة والرحمة بعد ذلك.

يعترض بعض الناس على حكم الله في الميراث أو في العقوبات كقطع اليد للسارق، وتعترض بعض النساء على حكم الله في الحجاب، حتى تتجرأ إحداهن أن تقول: إن الله ظلم المرأة بهذا الحكم، وتعترض الأخرى على إباحة التعدد للرجال.

وهذا الاعتراض ليس هو من المعصية وإنما هو من الكفر، لما فيه من الاعتراض، الناشيء عن الجهل بالله، فقد ظنوا كلام الله مثل كلام البشر يناقش، وظنوا أحكامه تحتمل الخطأ كأحكام البشر، فخرجوا عن العبودية بالخروج عن التسليم، حتى ولو صلى أحدهم أو صام، فلا يقبل منه ذلك، لأن معنى العبودية أصلاً لمن يكن في قلوبهم، ولم ينطلقوا فيما أطاعوا من العبودية لله والاعتراف بحقه وقدره، فلا قيمة لطاعتهم التي أظهروها.

أيها العبد: كن طائعاً:

أطع ربك، ولا تخالف أمراً من أوامره، ولا تتجرأ على مخالفة نهي من نواهيه، فلا يكفي أن تعترف بأحكام الله وتسلم له ثم تخالفها في عملك، فتمام العبودية بتصديق الاعتقاد والقول بالعمل.

ولا يحق لأحد أن يتخلف عن طاعة الله، فالتخلف عن طاعته تخلُّف عن عبادته، قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وطاعتنا لله هي وحدها طاعة العبودية، وغيره إنما نطيعه طاعة لله، فالذين أمرنا الله بطاعتهم كالأنبياء والعلماء والآباء؛ فإنما نطيعهم لأمر الله لنا بطاعتهم، فطاعتهم جزء من عبوديتنا لله وحده.

وطاعتنا للأنبياء وتواضعنا لهم ليس من باب عبادتهم، وإنما هو من طاعتنا لله وعبادتنا لله، فالأنبياء لم يطلبوا عبادتهم، وليس لهم أن يطلبوا ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

ومن أعطى لغير الله حق الطاعة فيما يخالف به أمر الله؛ فقد جعل عبوديته لغير الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١][(١)]، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، فقال ﷺ: «ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[(٢)] «فتلك عبادتهم لهم»[(٣)].

أيها العبد: كن متذللاً لله:

استشعر ذلتك وانخفاضك وتواضعك لله العزيز المتعالي الكبير، وتذكر

(١) تمام الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٠٩٥.

(٣) هذه تتمة الحديث أخرجها البيهقي في سننه ١٠/ ١١٦، وإسناده صحيح.

أنك مسكين، ولا تكن كأولئك الذين لا يعرفون الذلة إلا بعد العذاب، أو لا يعرفون الذلة إلا في الآخرة حيث لا تنفعهم الذلة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، فالله تعالى يريد عبده مستكيناً له متضرعاً إليه، وقد يصيبك البلاء لترجع إلى الله عارفاً ذلتك ومسكنتك.

وتذكر أن الله هو العزيز، وهو الذي يملك العزة: قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠].

ولقد دعا النبيُّ ﷺ ربه أن يُدخله في المساكين، فقال: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين**»(١)، وليس المقصود من هذه المسكنة الفقر والاحتياج إلى الناس، وإنما هو الشعور بالفقر إلى الله والاحتياج إليه، وعدم التكبر على عباده.

والله تعالى يكرم العبد وينصره بقدر ذلته، لذلك بين الله في كتابه أن صفة المؤمنين حينما نصرهم في غزوة بدر كانت صفة الذلة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ـ والله تعالى إذا رأى عبده متذللاً له؛ أمده بالعزة على من سواه، وأعزه بدينه، وأعزه على الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧-٨]، والمؤمن لا يستعز على أخيه المؤمن، قال

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٥٢، عن أنس ﷺ، والحاكم في المستدرك رقم ٧٩١١، عن أبي سعيد ﷺ، وقد روي الحديث بأطول من هذا، والزيادات عليه في بعضها ضعف.

تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

والله كما يُعِزُّ مَن تذلَّل له في الدنيا؛ يُعِزُّه في الآخرة، يوم يَذِلُّ المجرمون، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦-٢٧].

أيها العبد: كن مفتقراً:

تذكَّر أنك فقير محتاج إلى الله تعالى في كل شيء، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]، كلما احتجت إلى شيء تذكر أنه بيد الله وقدرته ومتوقف على مشيئته وإرادته، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]، تذكر أنك مفتقر إلى مدد الله، وكذلك كل مؤمن وكافر، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]، تذكر أنك مضطر إلى مدد الله في كل شيء، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، أنت مضطر إلى الله ومدده في سمعك وبصرك وكلامك وتفكيرك ونَفَسك ودقات قلبك وحركاتك وقوتك وبقائك...

فما دمت في فقر وحاجة في كل لحظة؛ فلا تنس فقرك واضطرارك إلى الله، ولا تستكبر على الله ربك.

أيها العبد: اعرف عَجْزَك:

استشعر عجزك، وتذكر أنك لا تقدر على شيء إلا بقدرة الله، قال تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، أي ليعلموا أن كل ما يقدرون عليه فإنما هو من عطاء الله وفضله ومدده وخلقه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

أيها العبد: كن مستضعِفاً:

تذكر في كل حال أنك ضعيف، وأنك مفتقر إلى قوة الله ومدده، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

تذكر أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فاستمد من الله القوة واعلم أن التصريف والتأثير في كل شيْ منه سبحانه، ولا تنسب ذلك لنفسك أو لأحد من الخلق.

وقد حثنا النبي ﷺ على أن يكون أحدنا متذكراً لضعفه في نفسه، فقال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظٍ(١) مستكبر»(٢).

وشعور الإنسان بعجزه وضعفه الذاتي، وأن قوته من الله لا من نفسه؛ لا يعني أن يتعاجز الإنسان، وأن يقصر فيما يستطيع مما أعطاه الله القدرة عليه،

---

(١) العتل: الشديد الغليظ الفظ الجافي اللئيم، الجواظ: الجموع المنوع، ينتفخ بما ليس عنده.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٦٣٤ ومسلم رقم ٢٨٥٣، عن حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ.

فالنبي ﷺ نهى عن ذلك، فقال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعُك، **واستعن بالله ولا تعجز**»[1].

أيها العبد: اعرف جهلك:

لا تظن أيها الإنسان أنك تعلم كثيراً، ولا أن علمك يساوي شيئاً في جنب علم الله، ولا تغتر على الخلق فيما آتاك الله من علم، فابق في حالة تواضع وشعور بجهلك وحاجتك إلى تعليم الله، فإنك لا تستطيع أن تعلم شيئاً إلا إذا علمك الله إياه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، واعرف لله فضله عليك، فكل ما عندك من العلم فهو من فضل الله عليك ومن هدايته لك ومن تعليمه لك.

ومهما بلغ علمك فإنه يبقى قليلاً في حقيقة الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال العبد الصالح خضر لموسى عليه الصلاة والسلام بعد أن رأى عصفواً شرب من البحر فقال: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر»[2]، فهذا علم نبي رسول وولي كبير وقيل هو نبي، فما علمك في جنب علمهما، فابق طالباً للعلم مهما علمك الله، وتواضع لله فيما علمك.

ولا تستكبر بعلمك على الله، ولا تُحرِّف في دين الله؛ ظاناً أنك تعطي أحكاماً خيراً من أحكام الله.

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة ﷺ، وتتمته: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

(٢) جزء من حديث طويل عن كعب بن مالك ﷺ، أخرجه البخاري رقم ٤٤٤٨ ومسلم رقم ٢٣٨٠.

أيها العبد: كن متواضعاً:

قد يحتاج الإنسان أن يتكلف الانخفاض والتواضع مع من هو مثلُه، لكنه لا يحتاج أن يتكلف ذلك مع الله، فالإنسان خفيض وضيع بطبيعته ورتبته بالنسبة إلى الله تعالى، فرتبة العبد المخلوق لا تطاول رتبة الرب الإله الخالق، ولا تقاربها.

فكن عارفاً بنفسك، متحلياً بصفتك على حقيقتها، فلا تستكبر ولا تغتر بنفسك ولا تعجبْ بها ولا تأنف، كِبْراً وغروراً وعجباً و أَنَفَة تجعلك تتطاول على الله وعلى أحكامه، فإنه لا إيمان، ولا تتم عبودية لله؛ إلا مع التواضع له ولحكمه.

فالله تعالى هو المتكبر المتعالي، الذي يستحق الكبرياء والتكبر على من سواه، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣].

وقال ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما قذفته في النار»(١)، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(٢)، هذا الكبر الذي لا يدخل معه الإنسان

---

(١) حديث قدسي صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٩٣٤٨ بهذا اللفظ، وأخرجه غيره، وأخرجه مسلم رقم ٢٦٢٠، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

(٢) ()أخرجه مسلم رقم ٩١، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الجنة؛ هو الكبر على الله وعلى حكمه وعلى كتابه وعلى نبيه ﷺ، فذلك كله ناقض للإيمان، وموجب للخلود في النار، أما الكبر على المؤمنين فهو من كبائر الذنوب القلبية، وينشأ عنه ذنوب قولية وعملية(١).

ومن واجبات الإيمان أن يتواضع الإنسان للنبي ﷺ وذلك باعتبار رتبة النبوة والرسالة، فإن عدم التواضع للنبي ﷺ يجعل الإنسان لا يعترف بنبوته، فيكون كافراً بذلك.

والإيمان بالنبي ﷺ يقتضي تعظيم قدره، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ومعنى ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه.

وإذا كان رفع الصوت عنده وفوق صوته سبباً في بطلان الأعمال الصالحة، فكيف بما هو أكبر من ذلك من التعالي والتكبر على النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وعدم التواضع لكتاب الله يجعل الإنسان ينفي صحة الكتاب، ويستكبر على أحكامه، وذلك من الكفر الموجب لعذاب الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

---

(١) حينما يكون التواضع واجباً إيمانياً نَعُدُّه من أحوال القلوب الإيمانية الواجبة، التي إن فقدت دخل الإنسان في الكفر، وهذا الذي نتكلم عنه هنا، وهو التواضع لله ولحكمه ولكتابه ولرسوله ﷺ، أما في حالة التواضع للخَلْق التي هي واجب أخلاقي من الواجبات الفقهية القلبية والعملية، التي إن فقدت كان الإنسان عاصياً صاحب كبيرة؛ فهذا يدخل في الأخلاق، لذلك سنتكلم عن التواضع في الأخلاق؛ من جهة تواضع المسلم للمسلم.

ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فجعل عذابهم فيه المهانة والذلة، لأنهم لم يذلوا لله بقبول كتابه، وإنما استكبروا عنه.

وإذا تكبر على المؤمنين؛ تكبراً على إيمانهم أو استخفافاً بإيمانهم، فذلك من الكفر أيضاً، كما إذا عظم الكافرين وناصرهم واحترم كفرهم وقدمه على الإسلام؛ فذلك كله من الكفر، فذلك الذي جاء فيه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٠-٥١].

والله تعالى وعد من يتواضع له بأن يَرفع قدره ويُعزه، قال ﷺ: **«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**(١).

أيها العبد: كن محباً:

انتبه إلى حبك، وقوِّ حبك لله بمعرفة فضله وإحسانه، وتذكُّر جماله وكماله، فإن العبادة لله مع الكره له والبغض والنفور منه لا تكون عبادة، ألا ترى إلى والدٍ لو أطاعه ولده وعلم أنه لا يحبه ولا يحب أن يطيعه، هل يرضيه ذلك من

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولده، بل يكره طاعته له، ويعتبر ذلك عقوقاً، فالله تعالى أولى بأن يكون محبوباً مع الإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان حب الإنسان لأهله ووالده يدعوه إلى تذكرهم والشوق إليهم عند غيابهم عنه، فالله أولى بأن نذكره ونشتاق إليه، حباً واعترافاً بفضله وشكراً له واحتياجاً إليه، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ـ وإذا تحقق الإنسان بالعبودية لله تعالى، فإنه يكون ـ تلقائياً ـ قد تخلص من كل أمراض القلوب، فإن خلاصة أمراض القلوب هي في خروج الإنسان عن وصف العبودية لله تعالى، ومن نظر إلى أخلاق باطنه وتصرفات قلبه ووزنها بميزان العبودية لله تعالى استطاع أن يعرف المرض من الصحة.

وإذا بدأ المسلم يتحقق بالعبودية؛ فإنه لا يرضى أن يقف عند الحدِّ الأدنى منها، بل يطلب الحد الأعلى والأحسن من العبادة والعبودية، ويسعى إليه، والوسيلة الأسهل لطلب الترقي إلى الإحسان هي المراقبة:

المبحث الخامس عشر

المراقبة
لعلم الله بك وحكمه عليك

إذا استقام العبد على أعمال دينه فهو مراقب لأمر الله في كل وقت وفي كل ظرف، ينظر ماذا يأمره الله وماذا ينهاه، وماذا يريد منه، فهو عبد الله في كل وقت وحين، ولكن هذا لا يكفي للتحقق بالإحسان، بل لا بد أن يستحضر مع ذلك أن الله يراه، أو يكون حالُه كأنه يرى اللهَ معبودَه، لقوة تعلقه به ومعرفته به.

ومن علم أن الله تعالى عليم سميع بصير رقيب، فكيف لا ينتبه إلى رقابتِه سبحانه وسمعِه وبصرِه.

والنبي ﷺ لما سأله جبريل عليه الصلاة والسلام عن الإحسان، قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، فالإحسان يتكون من شقين: الأول: **أن تعبد**، فإذا كنت في عبادة مستمرة، فكل شيء في حياتك مندرج في العبادة والعبودية، حتى أمور الدنيا والشهوات المباحة تدخل في عبادتك من خلال نيتك الصحيحة وموافقتك لأمر الله، فذلك من الإحسان، والثاني: أن تكون مع عبادتك منتبهاً إلى معبودك، فتكون **كأنك ترى الله**، فإن لم تستطع أن تتخيل ذلك؛ تذكر أن الله يراك، واجعل هذا الأمر في مخيلتك لا يفارقك، فإذا دام ذلك عندك كنت محسناً.

فإذا كان في أي عبادةٍ من صلاة وصيام وحج وذكر وغيرها؛ انتبه إلى ربه

(١) جزء من حديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وحَضَر معه، وإذا كان في أعماله الدنيوية من طلب رزق وطعام وشراب وجِماع وغير ذلك؛ انتبه أن الله يراه فيها.

يحاول المسلم ذلك ويتدرب عليه، ويتكلفه مرة بعد مرة، حتى يقوى عنده، ويصير طبيعياً وسهلاً وعادة وخُلُقاً في نفسه، حتى يصير سجية يأتي بلا تكلُّف.

كمثل إنسان يعمل في عمل ومعه صاحب العمل يراقبه، فإن عمله لا يشغله عن الانتباه إلى المراقب لعمله، وانتباه إلى المراقب لا يشغله عن عمله، بل يدفعه إلى مزيد من الإصلاح والإحسان والتجويد لعمله.

وكمثل إنسان يكون مع ملك، فإنه يتأدب في حضرته وينتبه إليه ويحسِّن كلامه وأفعاله، ولا يشغله انتباهه إلى الملك وملاحظة وجوده عن أدبه وحسن عمله، كما لا يشغله قوله وعمله عن وجود الملك معه، بل يكون ذلك سبباً في تجويد وتحسين الفعل والقول.

وكمثل إنسان علم أن آلة تصوير تُصوِّره وتراقبه؛ فإن ذلك يدفعه إلى التصرف الأمثل ويدفعه إلى تجنب التصرف القبيح المكروه، فكيف بالذي يعلم بأن الله يراه ويحصي عليه.

فالله أحق بأن لا نغفل عنه، وأحق بأن نُجوِّدَ أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا لأجله.

والحديث لم يعرِّف الإحسان، لأن الإحسان واضح مفهوم، لا يحتاج إلى تعريف، فهو الأخذ بالأحسن والأجود في كل شيء، فمن كان محسناً يطلب الأحسن والأجود في الفكر والقول والعمل والعبادة والمعاملة والخلق والأدب، وفي كل شيء في حياته.

وإنما ذكر الحديث الوسيلة الأسهل للتحقق بالإحسان، وهي المراقبة، أي مراقبة العبد لنفسه، ومراقبته لرقابة الله عليه، فمن انتبه إلى أن الله رقيب يراقبه، وسميع يسمعه، وبصير يراه، وعليم خبير يعلم ظاهره وخفاياه؛ فذلك يدعوه إلى الحياء بين يدي الله، فيصلح عبادته ويجودها بين يديه، ويخجل ويستحيي من معصيته وهو يراه، ويدقق على نفسه فيتأدب بأحسن الآداب.

إن أحدنا إذا رآه الناس خجل من فعل ما يكرهونه ويستقبحونه، ولو رآه صبي لخجل منه في أمور، فكيف لا نخجل ولا نستحيي من الله وهو يرانا على الدوام ويسمعنا، ويحصي علينا ويراقبنا، ويصور أعمالنا ليحاسبنا عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ: «فالله أحق أن يستحيى منه»(١).

فحديث «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه»؛ يبين الوسيلة التي من خلالها يصل الإنسان إلى الإحسان، وهي هذا الحال القلبي من الانتباه إلى الله وإلى رقابته.

والله تعالى معنا حيثما كنا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وما دام الله معنا ـ كما يليق بجلاله ـ في خلوتنا وجلوتنا، في بيوتنا وأعمالنا، إن أطعنا أو

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد ٥/ ٣ و ٤، والترمذي رقم ٢٧٩٤ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت: يا نبي الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر، قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قلت: يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض، [وفي رواية أخرى عند الترمذي رقم ٢٧٦٩: الرجل يكون مع الرجل] قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يراها، قال قلت: يا نبي الله إذا كان أحدنا خالياً، قال: «فالله أحق أن يَستحيي منه الناس». قال الترمذي: هذا حديث حسن. وذكر البخاري العبارة الأخيرة: «الله أحق أن يستحيا منه» تعليقاً قبل حديث رقم ٢٧٤.

عصينا؛ فواجبنا أن نتقيه، بطاعته والحذر من معصيته دائماً، كما قال ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن**»(١).

وقد حثنا الله تعالى على طلب مقام الإحسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٤٨، المائدة: ٩٣]، وقال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وما كان من وسيلة مشروعة إلى الإحسان فهو مطلوب مثله.

ومن الوسائل التي تُسَهِّل التوصل إلى المراقبة: وسيلة علمنا إياها النبي ﷺ حينما قال: «واستحيِ من الله استحياء رجل ذي هيبة من أهلك»(٢)، فالذي لا يقدر على الأدب والحياء بين يدي الله، لأنه غيب عنه، فليتخيل أحداً من الناس ممن يشهدهم ويستحيي منهم أن يفعل عيباً أمامهم، فليكن أديباً مع الله مثل أدبه معهم، على الأقل، وإلا فالله أولى بأن يتأدب معه.

تخيل أنك مع والدك أو جدك أو شيخك أو شيخ كبير القدر تحترمه، أو مع ملك أو وزير أو شرطي، فكيف تتصنع الأدب معهم، وكيف تستحيي من القبائح وهم يرونك.

لو رآك النبي ﷺ وأنت تصلي كيف تُجَوِّد صلاتك وخشوعها، فالله أولى بذلك.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧، عن أبي ذر ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) حديث حسن، أخرجه البزار رقم ٢٦٤٢، عن معاذ بن جبل؛ بهذا اللفظ،وتمامه: «أفش السلام، وابذل الطعام، واستحيِ من الله استحياء رجل ذي هيبة من أهلك، وإذا أسأت فأحسن، ولْتُحَسِّنْ خُلُقَكَ ما استطعت». وقد ورد هذا الحديث بعدد من الروايات والألفاظ أكثرها ضعيفة، وقد حسن بعض العلماء بعض رواياته، ولأجزائه شواهد.

لو رآك النبي ﷺ وأنت تُكَلِّم أهلك؛ كيف تتصنع الأدب والتواضع معهم، فالله أولى بأن تتأدب مع أهلك استحياءً من نظره إليك.

فانظر كيف تفعل في صلاتك وعبادتك، وكيف تفعل حينما تدعوك نفسك إلى معصية، وكيف تتقن عملك، وكيف تكون مع أهلك ومع الناس، وكيف تكون عند غضبك، وأنت بين يدي الله.

ومن جعل خواطره وفكره مشغولاً بالله تعالى وبذكره، فحفظ ذكره في كل حين؛ فإن الله يحفظه ويتولاه في حاجاته كلها، ويكون قريباً منه معيناً له، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، فامتنع الحزن لشعوره بالمعية، ثم أكرمه الله مع ذلك بالسكينة والطمأنينة والجنود الربانية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۞ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

وقال رسول الله ﷺ: «احفظِ الله يحفظْك، احفظ الله تجدْه تُجاهَك»(١).

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حسن صحيح.

خاتمة

مما يعطاه القلب السليم
نتيجة اتصافه بالصفات السليمة
في مرحلة الطالبين

إن القلب إذا طهر وصفا وزال عنه الران والقسوة والغفلة، فإنه يكون كمثل العين التي زالت غشاوتها، والأذن التي ذهب وقْرها، فيبدأ الإنسان يجد إحساسات القلب ويرى ثمرات صفائه وسلامته، وكأنما لم يكن له قلب وصار له قلب، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]

فيزداد شعور المسلم بقلبه وما فيه من خواطر وأحوال وتقلبات، ويصير التفاته إلى باطنه وإلى ما يصلحه كبيراً، كما هو ملتفت إلى صلاح ظاهره في أعماله وأقواله.

ومن الإحساسات التي تبدأ عند المبتدئ نتيجة ذلك؛ إحساسه بالخوف من الله عند الذكر، وإحساسه بزيادة الإيمان والمعرفة كلما قرأ القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]، فالقلب يحس بالوجل والخوف عند ذكر الله تعالى.

وينتج عن ذلك أن الجسم والجلدَ قد يقشعر ويهتز من قوة الخوف والخشية من الله، قال الله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فجِلْد الإنسان يقشعر ويهتز من أثر خشية القلب، ثم يلين بعد تشبعه بالقرآن وأنوارِه فيرق القلب، ويلين للقرآن ومعانيه.

الرؤى والمنامات والأحلام[1]:

ـ ومن نتائج صلاح القلب عند المبتدئ: أن تكثر الرؤى المنامية عنده، وكلما ازداد المسلم صلاحاً يلاحظ أن رُؤاه تزداد حسناً وجمالاً ونفعاً، على الغالب، وليس هذا أمراً مضطرداً، فلا يجوز أن نقول عمن لا يرى رؤى: إنه ليس بصالح، كما لا يشترط في وجود الرؤيا الصالحة كون الرائي صالحاً، فقد يرى الكافر رؤيا صالحة من الله[2].

لكن لا شك أن هناك نوعَ ارتباط بين صلاح الإنسان وكثرة رؤاه، لقول النبي ﷺ: «وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»[3].

ـ وقد علمنا النبي ﷺ أن الرؤى منها ما هو صالح، وهي الرؤيا من الله، ومنها ما هو سيء، من الشيطان، وعلمنا ﷺ كيف نتعامل مع الرؤى السيئة، فقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا فكَرِهَ منها شيئاً؛ فلينفث عن يساره[4]، وليتعوذ

---

(١) ليس هناك فرق بين هذه الكلمات من حيث المعنى اللغوي، لكن بعض الناس يجعل الرؤى ما كان من الله، والأحلام ما كان من النفس، والكوابيس ما كان من الشيطان، ويسمي الكلَّ مناماً، والبعض يطلق كلمة الأحلام على ما كان من النفس والشيطان، أما في الاصطلاح الشرعي، فإن حديثاً في البخاري ذكر أن الرؤيا من الله وأن الحلم من الشيطان، لكن الحديث نفسه أخرجه مسلم بلفظ: «الرؤيا السوء» بدل «الحلم»، مما قد يشكك بأنه من تصرف الرواة، وأنهم يَرَوْن المصطلحين بنفس المعنى، وقد نستطيع أن نقول: إذا أطلق الشرع كلمة الرؤيا فإنها تُحمل على الرؤيا الصادقة الربانية، بدليل أنها هي التي قال عنها: إنها جزء من النبوة، كما في حديث البخاري وغيره، والله أعلم.

(٢) كما ذكرت بعض هذه الرؤى في القرآن.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٢٦٣ وأحمد في المسند رقم ٧٦٣٠، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) وفي رواية عند مسلم: فليتفل عن يساره ثلاثاً، وفي رواية: فليبصق.

بالله من الشيطان لا تضره، ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر، ولا يخبر إلا من يحب»[(١)]، وزاد في رواية: «وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»[(٢)]، هذه رواية مسلم وفي رواية البخاري: قال ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق عن يساره وليستعذ بالله منه»[(٣)].

والرؤيا الصالحة من المؤمن لها شأنها، فهي من أجزاء النبوة كما أخبر النبي ﷺ، لذلك يستأنس بها المؤمن ويهتم بها، قال رسول الله ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب»[(٤)].

وقال رسول الله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[(٥)]، وفي رواية: «جزء من سبعين جزءاً»[(٦)]، وكما خصص هذه الرؤيا التي هي من أجزاء النبوة بالمؤمن؛ نراه خصصها بأمرين في رواية أخرى؛ بكون الرؤيا صالحة، وبكون الرائي صالحاً، فقال رَسُولَ الله ﷺ: «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ؛ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٦١ عن أبي قتادة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٢٦٢.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٦٠٣ عن أبي قتادة الأنصاري وكان من أصحاب النبي ﷺ وفرسانه.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٦١٤ ومسلم رقم ٢٢٦٣ عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٦٥٨٧، عن أبي هريرة ﷺ وأنس ﷺ، ومسلم رقم ٢٢٦٤، عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم ٢٢٦٥، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٦٩٨٣، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ.

وأنواع الرؤى ثلاثة، قال محمد بن سيرين: «وأنا أقول: الرؤيا ثلاث: **حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله**»[(١)]، فالرؤيا ثلاثة أنواع منها الصالح من الله، ومنها السيء من الشيطان، ومنها ما هو من النفس مما يحدث به الإنسان نفسه، أو مما يكون مهموماً به أو مشغولاً به، فيراه فيه المنام أو ربما يرى شيئاً عنه، ولا يفهم من هذا كل ما يحدث به الإنسان نفسه فإنه يكون من الرؤيا النفسانية، بل قد يكون من الله يوجهه فيه إلى الخير والحق، وقد يكون من الشيطان ليحزنه ويشوش عليه.

ـ ويمكن تقسيم **الرؤيا الصالحة إلى ثلاثة أنواع**: منبِّهة ومشجِّعة ومبشِّرة.

فقد يرى ما ينبهه إلى بعض ذنوبه وتقصيره، أو يرى ما ينبهه إلى ما يزيده قرباً من الله وأجراً.

وقد يرى ما يؤكد له صلاح أعماله أو صحة عمل من أعماله، وبركته، ليزداد حرصاً عليه، ودواماً وثباتاً عليه.

وقد يرى ما يبشره بسلامة دينه واستقامته، أو يبشره بأنه سيكون له شأن وحال طيب مع الله، وقد يرى الرؤيا فيه غيره، فيبشره بمثل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرَى له»[(٢)].

ولا يجوز للمسلم أن يَغترَّ بالمبشِّرات ويتكل عليها، بل يجب أن تزيده شكراً وإقبالاً، وإلا كانت استدراجاً ووبالاً على صاحبها.

---

(١) ذكره البخاري بعد حديث ٦٦١٤.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٧٩، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحوه البخاري رقم ٦٥٨٩ عن أبي هريرة ﷺ.

ولا ينبغي أن يكون اهتمامه بالرؤى والتفاته إليها بحيث يشوش عليه سيره وعمله، مهما كانت الرؤيا ربانية أم شيطانية أم نفسانية، وإنما واجِبُه أن يَبقى في أعماله وعباداته المطلوبة منه شرعاً.

والرؤى ليست من مصادر التشريع، فإذا جاء فيها ما يخالف الشرع والكتاب والسنة، فلا يجوز متابعة الرؤيا، ولا يؤخذ بظاهرها الذي يخالف الشريعة، وإنما يؤخذ بما جاء في الشرع وأحكامه، لأن الرؤى إنما هي أمثلةٌ تُفسَّر وتُؤوَّل، فلا يجوز اعتبارها على ظاهرها، لأن الله تعالى أخبرنا أن الرؤى لها تأويلات بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وحتى ولو رأى المسلمُ النبيَّ ﷺ في منامه ـ ورؤيا النبي ﷺ حق وصدق، فإن الشيطان لا يتمثل به، كما رواه البخاري ـ فليست هذه الرؤيا حجةً على الشرع، وإنما تُؤَوَّلُ تأويلاً مناسباً صحيحاً لا يعارض الشرع.

كما لا ينبغي أن يحرص على التحديث بالرؤى، فقد يُحسَد بسبب ذلك، لذلك نبهنا النبي ﷺ أن لا نخبر بها إلا من نحب.

وإذا لم يجد مَن يحسن التأويل؛ فلا يحرصْ على تحديث الناس وسؤالهم عنها.

وإذا كثُرت رؤى المسلم فلا ينبغي أن يُكثِر على المؤوِّلين من طلب تأويلها، بحيث يُتعبهم ويشغلهم برؤاه، وإنما يختار منها أحسنها وأهمَّها، وما لم يتضح له معناه. والنبي ﷺ لم يكن يؤوِّل كل رؤيا، بل قد كان يكتفي أحياناً بقوله: ما شاء الله، فلا ينبغي أن نُلِحَّ على المؤوِّلين في تأويل رؤانا إذا سكتوا عن تأويلها، أو اكتفوا بقولهم: ما شاء الله، أو قولهم: خير إن شاء الله.

فقد روى البخاري عن سمرة بن جندب ﵁ قال: كان النبي ﷺ إذا صلى أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول: «ما شاء الله»(١).

ـ ولا ينبغي أن ينشغل المسلم وطالب التزكية بالرؤى، فلا يجعل في نفسه رغبة ملحة إليها، فيصير كلما نام يتمنى أن يرى شيئاً، أو يدعو الله أن يريه شيئاً، فربما خالط ذلك حسن ظن بالنفس، أو خالطه اتكال على تلك الرؤى واغترار بها، فليسلِّم لله فيما يريه أو لا يريه.

ولا يجوز للإنسان أن يَكْذِبَ في الرؤى ولا في غيرها، والكذب في الرؤى من أسوإ الكذب، قال رسول الله ﷺ: «إن من أفرى الفرى أن يُرِيَ الرجلُ عينيْه ما لم تَرَيا»(٢).

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٢٠، وللحديث تتمة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٦٣٦، عن ابن عمر ﵄.

برنامج تزكية القلب

العمل	الوقت
احرص على إشغال القلب بالخواطر الصالحة السليمة	دائماً
رد الخواطر الباطلة من خلال: إنكارها والاستغفار من وجودها مع عدم العمل بما توسوس به	دائماً
انشغل بذكر الله ولا تغفل عنه	في كل وقت فراغ
انتبه إلى مراقبة الله لك وسمعه وبصره وعلمه بعملك	عند كل عمل
استحضار الإخلاص لله	عند بداية كل عمل
تذكر ضعف الخلق وأنهم لا ينفعون ولا يضرون	كلما جاءك خاطر الرياء
اشكر الله وتذكر فضله	عند رؤية كل نعمة
استجلب الشكر بالتفكر في نعم الله في النفس والآفاق	صبحاً وعشياً على الأقل
استحضر عظمة الله والتخوف منه	عند تذكر قدرته وجلاله
توكل على الله ولا تعتمد على الأعمال والأسباب	عند كل عمل وعند عدم القدرة على العمل
استجلب الخوف والرجاء من الله بتذكر جلاله ورحمته	صبحاً وعشياً على الأقل
استحضر هوان الدنيا وعظمة الآخرة	كلما رغب في دنيا أو أخذ منها
استجلب الأحوال من خلال: قراءة القرآن والذكر والتفكر ومجالسة الصالحين وسائر العبادات	بحيث تجعل لنفسك أوراداً تستغرق كثيراً من أوقاتك بهذه الأمور

فهرس الموضوعات

المرحلة الأولى مرحلة الطالبين

الباب الخامس تزكية القلب

الفصل الأول

حقيقة القلب وصفاته وأحواله وأعماله وخواطره وطريق تزكيته

الفصل الثاني

الصفات والأحوال القلبية السليمة